مختارات فصول

شفيق مقار

السحر الأسود

٢٨

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

(٢٨)

أول مايو



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مختارات فصول ـ مختارات فصول ـ مختارات فصول

شفيق مقار

السحر الأسود

ـ و ـ

مشكلة الكابوس

الفصـــل الأول

عبد العاطى

ترجع معرفتى بعبد العاطى الى سنوات عديدة خلت • لكن الأمور لم تبلغ مبلغا حقيقيا من السوء الا عندما ركبه ذاك الخوف بالغ السخف •

اقتحم غرفة مكتبى فى صباح يوم من أيام السبت ، وقـد اصفر لونه ، وتفككت أوصاله ، وانتابته رعشة ، فوقف مستندا بكفيه الى بللورة المكتب ، ملوثا اياها بذلك الدهن الذى يفرزه جلد كثيرين ، وأخذ يحملق فى وجهى بطريقة مضحكة •

تأملته لحظة ، ثم قلت :

ـ أهلا ، عبد العاطى • مالك ؟

ولئلا يسىء أحد فهم المسألة ، أو يأخذ فى الهمهمة والتلميح ، أقول من بداية الأمر ان عبد العاطى هـذا كان ـ اذ ذاك ، وقبل أن يحدث شىء مما حدث ـ شخصا تافها ، ليست له مهنة معروفة ، أو مكانة اجتماعية تخوله الحق فى اقتحام مكاتب الناس

بهذا الشكل • لكنه كان يعرف عنى أشياء كثيرة فاحتملته على مضض ، وأظهرت له الود •

وقد أخذ على كثيرون تساهلى معه ، وسماحى له بالتردد على ومجالستى بالمكتب والنادى ، والسير بصحبتى فى الطرقات ، مؤكدين ان ذلك سيسىء الى مستقبلى الحكومى ، لأن الرؤساء لا يحبون هذه الحكايات ويتمسكون بأن الموظف الجيد هو من تباعد عن مواطن الشبهات • غير انى لم ألق الى شىء من كل ذلك بالا ، أو أعره أهمية • فكل من يعرفنى معرفة جيدة يعلم انى لا أضيق بشىء مثلما أضيق بالمواعظ والحكم والأقوال المأثورة • وهو ما كانت أمى ، رحمها الله ، تدعوه كفرا ، وتدعوه زوجتى الآن حمقا • فوق انى أعرف حقيقة رؤسائى ، وتحت يدى عنهم أشياء كثيرة بفضل تعقبى لهم ، ومتابعتى لما يفعلونه فى الخفاء ، واستقصائى لحقيقة كل ما يقال عنهم • وذلك هو السر ـ الذى حير الجميع ـ فى حصولى على علاواتى ، وترقياتى فى مواعيدها ، واكتظاظ ملف خدمتى بتقارير الامتياز ، رغم انى أجلس فى ذلك المكتب ولا أفعل شيئا •

فليس هناك ، فى الحقيقة ، ما أخشى منه على مستقبلى ، حتى لو صادقت رجلا ضاربا بالدف يرقص به قردا ، أو اصطحبت الى مكتبى كل يوم امرأة سمينة عالية الصوت مخضبة الكفين بالحناء ، أو بنتا غجرية ضاربة ودع •

وبجانب كل ذلك كنت ــ رغم كل شيء ، وبعد فورة النفور والاستغراب الأولى ــ قد بدأت أميل الى عبد العاطى ذاك وتروقنى صحبته ، وتمتعنى آراؤه الغريبة ، وأحب الأماكن التى يتردد اليها والتى كان معظمها مشبوها .

ولا يعنى ذلك انى كنت أنفق عليه أو أعطيه نقودا . أولا ؛ لأنه لم يطلب منى ذلك ، رغم أن منظره عموما ، وشحوب وجهه، وبروز عظامه ورثاثة ثيابه ، ونظراته الزائغة ، وقذراته الواضحة ، كانت كلها منبئة عن انه لم يكن ــ فى تلك الأيام على الأقل ــ فى غنى عن نقود أحد ، وثانيا ، لأنه ليس من دأبى أن أعطى نقودا . وليس لأنى حريص على النقود ، فزوجتى تقول انى فيما يخص النقود وأشياء أخرى كثيرة ، أخيب من رأت ، ولكن لأن النقود لها ــ فى تصورى ــ تداعيات بذيئة تقيم بين المعطى والآخذ علاقات غير سوية . فلم أر فى حياتى شخصا يعطى شخصا آخر نقودا الا وظننت بهما الظنون ، وأخذت أردد فى سريرتى ، بأصوات داخلية ممطوطة مثقلة بالتلميح : « آه ، طبعا ! هكذا والا فلا ! أى والله ! نعم يا سيدى ! » ، بلا نهاية لهذه التصورات (التى قد تكون ظالمة) لما يجرى بينهما فى الخفاء اثر اعطاء تلك النقود ، وهى تصورات تزداد فظاعة بحق عندما يكون الآخذ امرأة ، فوقتها يمتلىء ذهنى بطريقة باذخة بحق .

قال عبد العاطى وهو يحاول عبثا أن يجفف عرقه المتصبب بخرقة أخرجها من جيبه :

ــ ابن الحرام ! بدأ يحاول الآن أن يزاحمنى فى داخلى أيضـــا •

قهقهت ضاحـكا ، رغم ما كان يعانيه من كرب • فقد كان عبد العاطى يعانى من ذلك الهوس ، كان مقتنعا اقتناعا كاملا بأن من سار أمامه أو وراءه ، أو بجانبه ، فى الطريق ، أو اعترض طريقه فى أى وقت وأى مكان ، لا يبتغى من الحياة شيئا الا أن يغتصب منه المكان الذى يكون سائرا أو متواجد فيه • تصـــور دائما ــ رغم انعدام قيمته ــ أن الجميع يتآمرون عليه •

لكنى سرعان ما شعرت بفظاظة ما استغرقت فيه من ضحك فتصنعت الجد ، وقلت له :

ــ من ؟ ذلك الرجل الذى حكيت عنه ؟ أما زال يتعقبك ؟

انحط جالسا على المقعد الوثير الموضوع أمام مكتبى ، وقد ازدادت رعشته ، وبات لونه فى بياض ورقة • فقمت واقفا من فورى ، متحينا الفرصـــة التى ظللت انتظرهـــا ، فأخرجت الفوطة الصفراء من درج مكتبى ، فمسحت بها دهن كفيه الذى لوث به بللورة المكتب ، وارتحت ، فطويت الفوطة بعنـــاية ، وأعدتها الى مكانها •

رغم ما كان فيه من اضطراب ، أخذ عبد العاطى يرقبنى

وأنا منهمك فى تنظيف زجاج المكتب من أثر ما فيه ، بغيظ ، ويهز رأسه . فلما جلست ، زفر بقوة ، وقال :

ــ نعم ، هو . لعلك أنت أيضا لا تصدقنى ؟ حاول اليوم ثانية ، لكنى أقفلت وجهى .

قلت ، ممعنا النظر فى وجهه ، عبد العاطى كان يستحلب الأفيون أحيانا :

ــ ماذا ؟ كان يريد أن يقفز داخلا ؟ من فمك ؟ يا عبد العاطى !

وكدت أطلق العنان لضحكى من جديد ، لكنه أطبق أسنانه ، وقد تجدد ذعره ، فرق له قلبى وأنا أراه يزم شفتيه ، ويغمض عينيه ، ويسد أذنيه ، لكنى لم استطع أن أمنع نفسى من أن أقول له :

ــ وماذا عن منخريك ؟

لكنى لم أكد أقول ذلك حتى انتابنى ندم . فعبد العاطى لم يكن مجنونا . ولم يكن ــ فى تلك اللحظة ــ يستحلب أفيونا . كان فقط فى قبضة ذعر حقيقى . قلت له محاولا أن أبث فى نفسه طمأنينة كنت أعلم انها مستحيلة .

ــ اسمع . سأقول لك شيئا ، يا عبد العاطى ، يا صاحبى .

انت تهذى . هـــذا كل ما فى الأمر. تهذى تماما . ستجن ، بهذه الطريقة . متى أكلت طعاما لآخر مرة ؟ يجب أن تكف عن هذه الأشياء . فكر قليلا فى الأمر . هب ذلك الشخص يريد حقا أن يقفز الى داخلك ، أين تظنـــه سيجد مكانـــا ليجلس ، أو يقف ، أو حتى ينحشر ؟ ليس هناك مكان بداخلك . ليس هناك موطىء لقدم . الى أين سيدخل اذن ؟ وكيف يدخل ؟ هل هو صغير الى هـــذا الحد ؟ وأين يقيم بداخلك ؟ هذا مستحيل . مستحيل .

احسست بارتياح وأنا أقول له هذه الأشياء ، وشـــعرت برضى عن حكمتى وتعقلى ، فملت وراء ، واستندت بظهرى الى ظهر مقعدى الجلدى الوثير ، ووضعت أطراف أصابع يدى اليمنى باحكام على أطراف أصابع يدى اليسرى ، ومططت شفتى ، محاولا بكل ذلك أن أعيده الى جادة الصـــواب . لكن الذى حدث ، وأنا أنظر اليه ، انى شعرت ــ برغمى ــ ببعض رعبـــه يتسرب الى منه . ومع ذلك قلت مكابرا .

ــ بهذه الطريقة ستخيب تماما . لن تفلح بهذا الشكل أبدا . سيسبقك الجميع وتظل أنت حيث أنت .

كنت احفظ هذه الكلمات عن ظهر قلب ، من كثرة ما رددتها أمى ، رحمها الله ، فى سمعى . لكن رعبى ازداد وأنا أنظر اليه ،

وحتى لا يفطن الى ذلك ، انفجرت ضاحكا قائلا ببذاءة سرعان ما خجلت منها :

ـ سيخلفك العالم كله وراءه وأنت مسمر فى مكانك محاولا أن تسد منافذ جسدك ، ها ، ها ، ها .

نظر الى وأسنانه تصطك ، وقال مغيظا :

ـ لماذا لا تطبق فمك ؟ أنت لا تعرف شيئا . كل من هم على شاكلتك لا يعرفون شيئا . لا ترون الا ما يدعونه يحدث على السطح ، ويسمحون لكم برؤيته . أما ما يحدث حقا ، هناك ، تحت السطح ، طوال الوقت ، بغير توقف ، فلا تعرفون عنه شيئا .

قلت له وقد بدأت أضيق بهرائه :

ـ ما هو هذا الذى يحدث حقا ، هناك ، تحت السطح ، طيلة الوقت ، بلا هوادة ؟ وأى سطح ذلك ؟ ومن هم أولئك الذين تتحدث عنهم ؟

قفز واقفا وقد اشتعل غضبا ، فدار حول المكتب مهتاجا ، حتى لقد خيل الى أنه سيهاجمنى . لكنه أطبق على ذراعى ، وبقوة لم أكن أتصور أنها فيه ، أوقفنى عنوة ، وجرنى الى النافذة الكبيرة المطلة على شارع قصر النيل جرا ، رغم أن حجمى

أكبر من حجمه بكثير ، كما أننى أثقل وزنا . وعندما أوقفنى أمام النافـذة ، دفع رأسى بيده ، فألصق وجهى بزجاجهـا ، وأشار ــ قرب عينى ، حتى خفت أن يفقأها ــ بأصبع مرتعشة ، وقـال :

ــ رأيتهما ؟

نظرت من عل ، فرأيت ما أشار عليه . هـذا مثار رعبه ؟ رجل وامرأة من العامة ؟ لم أر شيئا يستحق النظر . هيئتهما زرية . معظم هؤلاء الناس ــ وعبد العاطى منهم ــ هيئتهم زرية ، ولا تستوقف نظر أحد .

ضحكت لرعبه منهما وأنا أتصور الحياة القميئة التى جعلت ملامحهما ممسوحة بهذا الشكل . ومع ذلك ــ عندما جعلنى شىء لا أدرى كنهه أمعن النظر ــ بدا لى وجه الرجل الواقف فى الشارع مع تلك المرأة مألوفا ، وكأنه وجه من ذكرى قديمة . الرأس الصلعاء بعظامها الناتئة . الأكتاف العريضة الثقيلة ككتفى مصارع . والأنف المكسور المفلطح . ومن يدرى ؟ ألا يحتمل أن يكون الرجل مخبرا يراقب عبد العاطى ؟ صاحبى هذا ليس فوق مستوى الشبهات . قلت ، مغالبا خوفا من نوع آخر أثاره ذلك الخاطر فى نفسى :

ــ هل أنت واثق من أنه ليس مباحث ؟

احتدم غضبه أكثر . قال وهو يشير على المرأة :

ـ وهذه التى معه ؟ ألا تراها ؟ ما هـذا الذى تدلى منها ؟ ألا ترى ؟

نظرت الى المرأة . من ذلك الارتفاع لم أستطع أن أحدد لها سنا . لكن شعرها توهج فى الشمس . لعلها تصبغه بالحناء . سكت لحظة ، ثم قلت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ يالله ! انها تلد ثعبانا ، فى وضح النهار !

تركنى مسمرا أمام النافذة وهو يتنهد كما لو كانت روحه تفارق جسده ، فانحط على المقعد من جديد وهو يرتعد بعنف . سمعت أسنانه تصطك بصـوت أثار أعصابى . كنت فى حاجـة الى وقت وهدوء لأفكر . هذه الأشياء لا تحدث . ليس فى وضح النهار ، أو على قارعة الطريق . على الأقل . أنا لست مدمنا مثله . أنا رجل عاقل ومتعلم . لابد أن فى الأمر خدعة .

لكن تلك النظرة التى رفع الرجل رأسه فحدجنى بها ظلت تثير قلقى . والمرأة . وجهها أخضر ؟ لسبب ما تصـورت أن وجهها اخضر . التفت الى عبد العاطى مغيظا لأجعله يرى مقدار ضيقى فيخجل وينصرف . لكنـه لم يكن فى حـال تسمح له بالوقوف على قدميه . رأيت على جلد المقعد بين فخذيه خطا داكنا وقطرات تتساقط على السجادة بين قدميه .

كان يتصبب عرقا .

قلت وأنا أكظم غيظى بجهد :

ـ يا عبد العاطى . ما هذا الذى تفعله ؟

لكنه لم يلق الى بالا . أو لعله لم يسمعنى . كان قد بات أشبه بدمية مصنوعة من خرق قد ابتلت . أوليته ظهرى وقد أثار منظره تقززى . هـذه الطبقة من الناس لا تعرف كيف تتحكم فى انفعالاتها ومشاعرها . فوق أن الرائحة زكمت أنفى . فتحت زجاج النافذة . وللفور جاءنى صـوت عبد العاطى محذرا ، خافتا لا يكاد يسمع :

ـ ابتعد عن هذه النافذة .

كنت أعلم أن هواء الغرفة المكيف سيتبدد وتمتلىء ترابا وضجيجا من الطريق . لكن الرائحة كانت أقوى منى . رائحـة نوشادر ورائحة حلبة . بعض الناس ينضحون خوفهم بروائح كهـذه .

وفى الطريق ، كانت المرأة واقفة بلا حراك ، أشبه بتمثال يغطيه طحلب ، وذلك الثعبان مدلى منها . لسبب ما بدت المسافة التى بيننا وكأنها تتقلص ، فبات وجهها الثعبانى لصق وجهى ، ونفذ الى سمعى أنين طويل متوجع من بين شفتيها ، غاص له

قلبى • ولفحت وجهى أنفاسها • ووجدتنى أنظر فى عينيها الخضراوين وقد باتتا أمام عينى واقتربتا حتى اتسعتا فشغلتا الفراغ كله • وتغير لونهما • حاولت أن أعرف لهما لونا • فى لحظات بدت العينان كبئر سوداء ناعمة السواد كقطيفة تومض فى أعماقها ومضات ذهب • ولم أضق برائحة أنفاسها • ملأت أنفاسها صدرى بعبق غريب ، معوج ، لم أذق مثله فى حياتى • انتابنى دوار ، وسمعتها تغمغم فى سمعى •

ومن ورائى ، من بعيد ، كأنما من مكان آخر ، ظل صوت عبد العاطى يأتينى لحوحا ، رتيبا ، متهالكا ، بغير لون أو نبرة ، لكن الحاحه ظل يشدنى الى الوعى :

ـ ستجعلك تقفز من النافذة •

وكأنما ليطغى على صوته ، ارتفع صوت المرأة وتحدد أكثر فى سمعى ، بغير كلمات • لكنه ظل يردد ، وقد بدا ان كل كلمة تكلفه جهدا :

ـ اقفل النافذة ، اقفل النافذة • تعال بعيد عنها ، قلت لك •

ثقبت سمعى صرخة حادة متوهجة كسيخ محمى ، أحسستها تنفذ فى جسدى كله ، ولفحتنى الأنفاس لاهثة بقوة ، فيها شبهة

نتن خفيف ، حارة وكأنها خارجة من فوهة فرن • أعادتنى تلك الصرخة الى وعيى ، فاذا بى قد اعتليت افريز النافذة موشكا أن أقفز • وعلى أرض الشارع ، بأسفل ، اتقلت الثعبان لامعا ، مبتلا ، يغطيه مخاط الميلاد لايزال •

نزلت من النافذة محاولا أن أقف على أرض الغرفة التى كانت تموج تحتى • استدرت الى عبد العاطى مستنجدا به ، فلم أجد له أثرا • نظرت الى الشارع ، فلم أر للرجل ، أو المرأة ، أو الثعبان الذى ولدته أثرا •

فى المصـعد

قالت زوجتى ، وهى تعقد لى ربطة عنقى :

ــ رجل محترم مثلك ! هذه حكايات تقال ؟

ندمت على مصارحتى اياها • وددت لو عضضت لسـانى فقضمته • زوجتى لا تحكى لها مثل هذه الأشياء • قالت :

ــ عبد العاطى هـذا رجل على شاكلته • سيجر عليـك المتاعب •

استدرت متظاهرا بالبحث عن منديل ، حتى لا ترى وجهى • تشاغلت بارتداء الجاكتة ، لكنى أدخلت ذراعى فى كم ، ولم أجد للكم الآخر أثرا ، ماذا أقول لها ؟ المرأة ــ رغم بلادتها ــ على حق • هذه حكايات مجانين • من الذى سيصدقنى اذا قلت له انى ــ بعد اختفاء عبد العاطى وأصحابه الذين كانوا فى الشارع ــ تمالكت روعى ، وثبت الى رشـدى ، ففسرت الأمر كله بأنه

تمثيلية بذيئة قام بها ذلك الشخص الذى لم يكن ينبغى لى أن اخالطه ، مستعينا برجل وامرأة من السوقة والحواة .

لكنى لم أكد اخرج من باب المصلحة الحكومية التى أعمل بها ، حتى تقدم منى ، فى الثانية بعد الظهر ، فى شارع عام ، على مرأى من عشرات النـــاس ، منهم مرءوسين لى رجل معوج الخلقة ، فتح فمه على سعته ، وأشار بأصبعه داخلا ، فجعلنى أتوقف فى سيرى ، وكالأحمق أثنى ركبتى ، وألوى عنقى ، فأنظر داخل جوفه البذىء ، وأرى فى ذلك الجوف ، بعينى رأسى ، شخصا أعور جالسا يأكل بالتذاذ مرتاحا ويفوح بنتن ادار رأسى وهو يرمقنى بنظرة لؤم ، ويسبل جفن عينه الوحيدة ، وهو يلوك بفمه قلت لزوجتى :

ـــ أنت على حق طبعا . لا ينبغى للمرء أن ينساق وراء هذه الأشياء .

انتابنى دوار . وعندما نظرت ثانية كان الرجل الذى اعترض طريقى ففتح لى فمه وجعلنى أنظر داخلا قد اختفى هو والشخص الأعور المقعى داخلا .

قالت زوجتى ، وهى تناولنى عصاتى ومنشتى ونظارتى ، وعيناها تتفحصانى بارتياب :

ـــ رجل فى مثل سنك . له مكانتك .

تلك خصلة فيها •

ولقد بدا لى دائما انها تتلذذ إن تذكرنى بسنى ، ومكانتى ، وكأنها تهز بيد غير عابئة ، سلسلة موضوعة حول خصرى لتجعلنى أتوائب وأرقص •

وكدأبى منذ سنوات ، انفلت خارجا من باب المسكن ، فأوصدته ورائى ، وتلفت يمنة ويسرة لأطمئن الى أن أحدا من السكان الآخرين لا يرانى ، ثم استندت الى الباب بظهرى ، وتنفست بعمق •

ورغم أنى لم أكن أستخدم مصعد العمارة فى النزول ، واستخدمه فى الصعود مضطرا ، شعرت فى ذلك اليوم وكأن يدا تشدنى اليه • وعندما هبط من الأدوار العليا ، ودخلته ، لم يكن فيه أحد ، لكنى ـ بعد أن ضغطت على الزر ، واستدرت وجدت معى فيه فتاة ذات شعر أحمر ، مثل عمر ابنتى ، معها كلب أسود صغير ظلت تحتضنه وتمسح أنفها بأنفه المخطط ، وتقبله فى فمه كثير اللعاب ، وشعرت بالخجل ، لسبب لم أدركه ، فسارعت بالقول ، ناصحا حتى لا أفكر فيما قد يكونه ذلك السبب :

ـ لا يجب أن تفعلى ذلك • الكلاب فى لعابها بكتيريا •

نظرت الى الفتاة ضاحكة ، ثم دفعت الكلب فى وجهى ،

فلعقنى بلسانه • أخرجت منديلى متأففا فمسحت به شفتى ، وجانب أنفى ، والفتاة تضحك ، وتحاكى نباح الكلب •

ورغم أن المصعد كان مستمرا فى هبوطه البطىء انتابنى شعور بأنه تعطل ، معلقا بين الأدوار والفتاة لا تكف عن ضحكها ، الذى كان له فى سمعى رنين كأجراس صغيرة من فضة ، وتضم الكلب الى صدرها ، وهى تتفحصنى بنظرة جادة ، وتقول :

ـ أنا أعرف ما تريده منى •

نظرت اليها ذاهلا ، وانتابنى خوف • آخر ما أنا بحاجة اليه • فضيحة تحدثها لى بنت فى عمر ابنتى مها ، مدعية على بأشياء لم أفعلها ولم تخطر لى ببال •

ضحكت البنت وقالت :

ـ مالك مرتعب هكذا ؟ هل تخشى أن آكلك ؟

ثم كفت عن الضحك ، وقالت :

ـ عجوز فى مثل سنك وله مكانتك !

بنت الحرام ! كانت تتسمع بالباب ، وركبت معى المصعد لتمثل هذه المهزلة • لكنها قالت ، وفى عينيها الرماديتين تلك النظرة الجادة المتفكرة •

ـ آخر ما أنت بحاجة اليه فضيحة تحدثها لك بنت فى عمر ابنتك مها ، موقفك سيىء بما فيه الكفاية !

غاص قلبى بين جنبى ، نظرت فى وجهها . من قال ان عينيها رماديتان ؟ وما هذا الذى يومض فى أعماقها ؟ تشبثت بالحديد المتشابك لباب المصعد . قالت ، وهى تسد أنفها بظهر يدها :

ـ عجوز قذر ، رائحته نتنة !

توقف المصعد أخيرا ، ففتحت بابه واندفعت خارجا ، لكنها لحقت بى ، فتأبطت ذراعى فى بهو العمارة المفضى الى الباب الخارجى ، وقالت :

ـ لماذا تكرهك زوجتك بهذا الشكل ؟

رأيت البواب ينظر الينا ، ويهم واقفا بتثاقل . انتزعت ذراعى منها ، فاندفعت ضاحكة ، والكلب ينبح من فوق كتفها . هابطة الدرج الرخامى الواسع ، متواثبة ، واستدارتها الفتية تترجرج فى بنطلونها المصبوب على جسدها .

تصببت عرقا وأنا أرى الكلب على كتفها يخضر لونه ، ويتحول الى ضفدعة كبيرة ممخطة تحدجنى بعينين جاحظتين ، والنباح الحاد يتحول الى نقيق . اندفعت كالأحمق ، لأقف بينها وبين البواب حتى لا يرى ما كان حادثا ، وكأنى المسئول عنه . ولكن ، ألم يرها الرجل متأبطة ذراعى ؟ أخرجت حافظة

نقودى فأعطيته جنيهـا بحجة تكليفه باحضـار سـباك يجرى تصليحات لا وجود لها يدعو اليها الأمر بتوصيلات الميـاه فى مسـكنى ، خشيت ــ ان فطن الرجـل الى ما كان حادثا فوق كتفها ــ أن يطلق لسانه فى العمارة فيؤلب السكان ضدى .

لاحظت ان الرجل ــ رغم أدبه الصفيق المصطنع ــ وترحيبه بالجنيه ــ يشيح بوجهه وأنا أكلمه . قال ، وهو يميل وراء ، مباعدا ما استطاع بينى وبينه :

ــ هناك رجل ينتظرك .

قلت وأنـا أقترب منه أكثر حتى أتيقن من أنه يتحـاشى رائحتى .

ــ لم لم تدعه يصعد الى مسكنى ؟

لم يعد لدى شك . انحط الرجل جالسا حتى لا يظل واقفا أمامى يشم رائحتى . قال ، مشيرا على شخص فى ثياب زرية كان واقفا بباب العمـارة الخارجى محدقا الى أعقاب الفتـاة والضفدعة التى على كتفها :

ــ سعادتك ترى .. خشيت أن تطرده الهانم .

انقبض قلبى . كيف عرف عبد العاطى عنوان مسـكنى أيضا ؟ ما الذى سيفكر فيه البواب متى رآه يحدثنى بألفة ، بصفاقته المعهودة ؟

رأيت سيارة تاكسى مقبلة ، فأشرت الى سائقها • نظر الى السائق وعبد العاطى يتقدم من الباب الآخر ، فيفتحه ، ويركب • خطر لى أن أطلب من السائق القاءه خارجا ، لكنى أشرت اليه بيدى أن ينصرف الى قيادة سيارته ، فاستدار الرجل الى عجلة القيادة بعد أن أمعن النظر فينا ، وضحك •

كانت الرائحة لا تطاق • عجبت كيف لم ينتبه اليها السائق • أدرت زجاج نافذة السيارة المجاورة لى ، ففتحته ، على أمل أن تتبدد الرائحة ، ما الذى سيقوله السائق عنى ؟ عبد العاطى هذا سيجر على المتاعب ، كما قالت زوجتى • من الذى يرى منظره أو يشم رائحته الفظيعة ولا تنتابه الشكوك والريب فى عاداتى وأخلاقى ؟ نظرت الى ثيابه • كانت مبتلة من العرق ، لاصقة بجسده ، وكأنه خرج بها لتوه من بالوعة • والنافذة المفتوحة لم تجد شيئا • رائحة الحلبة والنوشادر والعرق كانت قد بلغت حدا لا يجدى معه شىء • تصورت ما يمكن أن يفعله ذلك السائق الذى بدا لى شرسا ميالا للشجار ، فيما لو استسلم عبد العاطى لخوفه ، ففعل فى سيارته ما فعله فى غرفة مكتبى •

جلست واضعا يدى على ركبتى ، ناظرا أمامى بجمود ، متجاهلا وجوده ، متباعدا عنه بقدر ما سمحت مساحة المقعد وكأنى بهذه الطريقة ، اتنصل منه • رغم انى ، فى قرارة نفسى ، كنت قد بدأت أفهم محنته ، وأشعر بشىء غير الغضب والحنق

تجاهه . زلزلت حادثة البنت جهنمية الشعر التى ظهرت لى فى المصعد كل ما كنت قد تشبثت به حتى ذلك الوقت من طمأنينة ورفض وعدم تصـديق . أشياء كهذه لا يمـكن أن تحـدث عرضا . لابد أن هناك تدبيرا ما . لابد أن أحدا ينوى شيئا . وها هو جليسى فى التاكسى يموت خوفـا ، لأنـه يعرف تلك المرأة التى وقفت تحت نافذتى ، فى عرض الطريق ، وأخذت تلد ثعبانا ، ثم أوشكت أن تجعلنى أقفز من نافذتى بالدور الرابع ، فيدق عنقى . ثم ذلك الرجل الذى كان ينتظرنى على باب المصلحة ليفتح لى فمه القبيح على سعته ويرينى ما بداخل جوفه ، ثم تلك البنت التى لم أرها فى العمـارة قبـلا . من أين جاءت ؟ من الذى بعث بها الى ؟ وكلبها الذى يتحول الى ضفدعة خضراء كبيرة على كتفها أمام عينى . يجب أن أسأل البواب عنها ، عندما أعود الى البيت . يجب أن أعرف رقم مسكنها حتى اتحدث الى من تقيم معهم أو تتردد عليهم من السكان . ولكن ، ذلك البواب اللئيم ، ما الذى سيقوله عنى ؟ سيظن بى الظنون . البنت فى عمر ابنتى فعلا . وجميلة حقا ، وشـقية ، وملعونـة . رغم ما كنت فيه من كرب ، ضحكت وأنا أتذكر وجهها المتشيطن وهى تقلد صـوت زوجتى وتقول لى رجـل فى مثل سـنك ، له مكانتك . كلا . لا يجب أن أسأل البواب . قد يخبر زوجتى ، أو يثرثر فى العمارة قائلا انى طلبت منه مساعدتى على اغواء تلك البنت ، هذه الفئة من الناس ــ لكثرة ما تطلع عليه من اسرار

البيوت وحماقات السكان ـ تصبح نظرتها الى من هم أفضل منها نظرة كلبية • تصبح عقولها قذرة تفكر بالســوء دائما • لا تفكر ـ بالحقيقة ـ الا فى شىء واحد فقط • سأسأل مها • هى التى يمكن أن أتعامل معها وأنا آمن • ســوف تفهم • ولو أنها قد تراودها الشــكوك أيضا هى الأخرى • لكن يجب أن أعرف • ان لم تكن تلك البنت من ساكنات العمارة سيصبح موقفى سيئا بحق • لأن ذلك لن يكون له الا معنى واحدا ، وهو أنهم (أيا كانوا هؤلاء الـ « هم ») بدأوا يهتمون بى ، فبعثوا الى بتلك البنت لتظهر لى ، ويتحول كلبها أمام ناظرى •

التفت الى عبد العاطى محنقا لأضربه على أم رأسه فأفثأ غيظى • هو الذى جر على كل هــذا البلاء بعلاقته المريبة بهذه المخلوقات التى تتحرك كالديدان فى دهاليز سفلية • هو الذى قادهم الى وجعلهم يعرفون طريقى ، ولولاه لمــا خطرت لهم ببال أو جرأوا على التفكير فى • قلت له :

ـ لعلك راض الآن عما فعلته بى ، ستخرب بيتى • رأيت تلك البنت التى كانت خارجة من باب العمارة ؟

لكنه لم يسمع شيئا مما قلت • رأيت عينيه زائغتين تائهتين فى وجهه ، ولفحتنى هبة أقوى من رائحة خوفه • وضــع يده على كم سترتى ، فنظرت اليها بتقزز • رأيتها نحيلة ، معروقة ،

رمادية ، رخوة ، ومبتلة ، كيد جثة • سرت قشعريرة فى جسدى ، نفورا منه ربما ، أو عدوى من رعشة خوفـــه • كان قد ازداد نحولا بشكل لا يتصور ، منذ أن رأيته صباحا • وازدادت عيناه جحوظا • سمعته يغمغم شيئا عن مكانتى الاجتماعية ، فوددت لو اطبقت بكلتا يدى على عنقه النحيل فأزهقت روحه • رأيت وجهه وقد بدأت تشوب لونه الرمادى خضرة • قلت من بين أســنانى :

ــ الله يلعنك • ماذا تريد منى ؟

قال بصوت وجدت صعوبة فى سماعه :

ــ يجب أن تدعنى اختبىء عندك •

قلت وأنا أحملق فى وجهه مسحورا واللون الأخضر يزداد وضوحا ويتحدد :

ــ هل جننت ؟

غاظنى ان خرج صوتى مبحوحا بدلا من أن يفصح عن استنكارى • قال ويده تستميت على كم سترتى بلزوجة ، وكأن أصابعه ديدان رخوة :

ــ لا تتخل عنى • لم أسىء اليك أبدا • لن أزعجكم فى شىء •

نفضت يده عن ذراعى بعنف ، وقلت :

ـ يا مجنون .

قال ، بصوته المتهافت وعيناه تجحظان أكثر فأكثر فى وجه قد بات فى لون ورقة شجر :

ـ انهم يضيقون الخناق على . لن يجرؤوا على ملاحقتى فى بيتك .

ثم صمت ، ورأيته ينظر أمامه مرتعبا ، فتتبعت نظراته ، وتسمرت عيناى على عنق السائق . فتحت فمى ، لكن الصرخة احتبست فى حلقى . أخذت أنظر مسحورا الى العنق الثعبانى وقشور صلبة ، خضراء ، لامعة ، يتراكب بعضها فوق بعض ، فتغطيه . نظرت فى المرآة التى أمامه ، فرأيت وجهه ، ورأيته يبتسم لى . انطلقت الصرخة المحبوسة ، وفتحت باب التاكسى وهو منطلق بأقصى سرعته ، فألقيت نفسى خارجا .

المستشفى

عولجت فى المستشفى علاجا طويلا معقدا ، ومؤلما فى معظم الأحيان ، من كسور بسيطة ومركبة فى عظام جسدى ، وتمزقات فى عضلاته ، وأجريت لى عمليات فى عظام الرأس ، وعملية ــ قيل انها « تجميلية » ــ فى الجانب الأيمن من وجهى • ولم يقل لى أحد بطبيعة الحال أنى فقدت العين اليمنى •

لكن كل ذلك التجبير والنشر والتكسير ووضع المسامير والكلابات فى عظامى كان هينا لا يذكر بجانب المشكلة الأخرى • وفى بداية الأمر قرر الأطباء انى أصبت بارتجاج • ثم بالتهاب فى مكان ما داخل الدماغ ، ثم بحمى مخية • وظللت أسمع تلك التشخيصات البلهاء وأضحك ، لأنى ــ وأنا طبيب نفسى ، كما كانت تقول أمى ، رحمها الله ــ كنت أعرف حقيقة ما بى ، ولم يكن ــ على وجه اليقين ــ ارتجاجا ، أو التهابا ، أو حمى مخية • ولم يكن حتى اختلالا فى العقل • لكن أولئك الأطباء اغتاظوا

منى لأن تشخيص حالتى أعيـاهم ، وكشف عن مدى جهلهم وادعـائهم ، واضطرهم الى تغيير رأيهم الطبى المرة تلو المرة ، ولذا فانهم قرروا ، فى النهاية ، ربما على سبيل الانتقام منى ، الاستعانة بطبيب نفسانى •

وعندما علمت ذلك ، كدت أنفجر غيظا • أولا لعلمى بأنى لم أجن • وثانيا لأن هـذا الصنف من الأطباء يتقاضى أتعابا باهظة ، بمقولة ان ارتفاع الاتعاب مفيد للمريض لأنه يجعله يؤمن بأهمية العلاج ، وبذا فانه يتماثل للشفاء سريعا • والذى لاشك فيه أن هؤلاء الأطباء يعرفون عقليات تلك الطبقة من النـاس التى تمكنهـا دخولها من الاستعانة بهم • فقد رحبت زوجتى بالفكرة ترحيبا حارا وفوريا كان مثار تعليق الجميع واعجابهم اذ اعتبروه تضحية منها بمال كثير ابتغاء لشفائى • لكنى كنت مدركا للسبب الحقيقى • فالمرأة وجـدت فى الاسـتعانة بذلك الطبيب منفذا الى تحقيق مآرب كثيرة أهونها شأنا انه آتاح لها بغير شك أن تظل تحكى وتعيد وتزيد فى تلك المسألة فى النادى ، فتثير غيرة كثيرات من صديقاتها الحمقاوات اللاتى يعتبرن مثل هذه الأشياء علامات على تفوق المكانة الاجتماعية • اما أخطر تلك المـآرب وأشأمها فحصولها ــ من خلال اضطرار المستشفى لعلاجى نفسيا ــ على اثبات قاطع بأنى بت مشكوكا فى سـلامة عقلى • وكل من يعرف المرأة شخصـيا أو يعرف كيف تفـكر

مثيلاتها من الزوجات ، يدرك خطورة مثل ذلك السلاح فى يد زوجة قد ترى من الملائم لمشروعاتها الخاصة أن تحجر على زوجها أو تجرده من أمواله وتحبسه فى زنزانة مبطنة الجدران بالجلد ، بلا نوافذ .

وليس فى شيء من كل ذلك ما ينتقص من قيمة زوجتى كسيدة فاضلة وأم وزوجة . كل ما فى الأمر انها ــ ككل أبناء وبنات الطبقة التى تنتمى اليها ــ تعانى من شبق نقدى متسلط على مشاعرها ، ومسارب تفكيرها ، ومواقفها من الناس والأشياء ، وكل عملياتها العقلية . ولا أعنى بالشبق النقدى شهوة تسلط صاحبها الى محاولة الحصول على مزيد من النقود ،فذلك اشتهاء لا ينجو منه أحد ، بل أعنى شبقا يحل محل العقل ، والجنس والعواطف . كل ما هنالك يترجم الى نقود . كل شيء فى الحياة يصبح « بكم » ؟ كذا من مئات الجنيهات ؟ كذا من آلاف الجنيهات ؟ وبقدر ما يعظم المبلغ ، يرسخ الشيء أو الشخص موضوع الدفع ، ويبيت محترما ، مشروعا مكينا ، موثوقا به ، يركن اليه ، مطمئنا ومضبوطا .

فى العمارة التى نسكنها ــ مثلا ــ امرأة مشبوهة تدير بيتها وكرا للقمار وأشياء أخرى . وعندما فاحت لها رائحة ، وثرثر البواب ببعض ما يجرى فى شقتها ، ثارت ثائرة الجميع عليها ، وعلى رأسهم زوجتى . فلما قلت لها : « يا شيخة .

مالنا ومالها ؟ دعوها تأكل عيشا كغيرها » ، نظرت الى زوجتى مليا وقالت ما معناه أنى ، لابد ، من المترددين على مسكن تلك المرأة فأقفلت فمى ، وسكت . بدأوا كلهم ، يتجمعون وينظمون صفوفهم ، ويضعون تكتيكاتهم لتسويد عيش تلك المرأة . لكن البواب ، الذى كان يربح من ورائها أكثر مما يحصل عليه بالسرقة والغش والابتزاز من كل السكان الآخرين ، ذهب فحذرها مما كان الآخرون يعدونه لها . وللفور ، غيرت المرأة طريقة حياتها . لم تكف عن ممارسة نشاطها ، بل لعلها تمادت فيه . لكنها تخلت عن هيئتها المتواضعة القديمة . غيرت ديكورات المسكن وأثاثاته . وباتت ترتدى ثيابا غالية الثمن ، واشترت سيارة من طراز باهظ الكلفة لا يستخدمه الا الوزراء ورؤساء مجالس الادارات ، ومن اليهم . ولم يتطلب الأمر وقتا قبل أن تتفرق صفوف من كانوا ينوون تسويد عيشها ، وباتوا يتسابقون ، فيدوس بعضهم على بعض من فرط استعجال التقرب والزلفى اليها .

وتلك خصلة يعرفها العامة فى هذا الصنف من الناس ، ويحسنون استغلالها فى نهب أموالهم بالمغالاة فى أثمان ما يبيعونه لهم أو يؤدونه من خدمات لا قيمة لها ولا فائدة منها ، ليوهمونهم بأنها أشياء وخدمات ذات خطر ، مكينة ، ومضبوطة ، ويثرون بذلك على حساب أمثال زوجتى .

ولا يعنى ذلك ان الطبيب النفسانى الذى استقدمته ادارة المستشفى ـ بالتواطؤ مع زوجتى ـ لنهب نقودى بحجة معالجتى من اختلال فى العقل ، كان من العامة . فهو رجل مهنى مضبوط وله مكانته الاجتماعية المرموقة ، ويقتنى أشياء كثيرة ذات قيمة، فوق انه ممن تعلموا فى جامعات أوروبا وأميركا وعادوا بشهادات ودرجات علميـــة كثيرة ، وألقاب علمية ، وحروف كثيرة تذيل اسماءهم . ولو أن ذلك لا يمنع طبعا انه ـ نتيجة لذلك الخطأ المهلك الذى ارتكبه الدكتور طه حسين ، غفر الله له وسامحه ـ كان أصلا ابن بواب ، أو ابن حوذى أعرج ، أو ابن بائع خضروات أعور ، أو شيئا من هــذا القبيل . فهذه الفئة من النـــاس لا تكف عن محاولة التسلق الى أعلى ثم أعلى فى سلم المكانات الاجتماعية عن طريق تعليم أبنائها ـ وأحيانا بناتها ـ مستغلة فى ذلك ما بات يعرف باسم « ظروف العصر » ، أو « متطلبات التقدم أو أشياء سخيفة كهذه هى فى الواقع دعاوى يروج لها بعض أبنـــاء ـ وأحيانا بنـــات ـ الأثريـــاء وذوو المكانـــات الاجتماعيـــة الرفيعـــة ممن ينقمون على آبائهم ـ وأحيـــانا أمهاتهم ـ لأسباب أوديبية بذيئة لا علاقة لها بالعصر وظروفه ، أو التقدم ومتطلباته ، ويتمكنون بذلك من تسويد عيش آبائهم اذ يتيحون للعامة أن يدفعوا بأبنائهم ـ وبناتهم أحيانا ـ للتسلل متنكرين والاستيلاء على تلك المكانات الاجتماعية من داخـــل

الهيئة الاجتماعية ، تحت شعار « العلم للجميع » (وهو شعار ضار للغاية) ، بطريقة لا يفطن اليها أحد ، فاذا فطن لم يفعل حيالها شيئا ، لأنه ما الذى يستطيع أن يفعله ؟

لم يفعل ذلك الطبيب النفسانى شيئا من أجلى ، اللهم الا الاستيلاء على مبالغ كبيرة من نقودى أعطته اياها زوجتى ، ثم جاءت فقالت لى عنها بشماتة لم تحاول اخفاءها . وهو ما قد يرجح فعلا أنه كان فى أول امره ابن بواب أو حوذى أو بائع خضراوات . قال فى بداية العلاج انى أعانى من هتر هستيرى . ثم — عندما تقدم العلاج ، وبدأت كلفته تتضخم ، قال ان الحالة قد تكون شيزوفرانيا ، مع شبهة استحلاب الأفيون .

وقد راقت تلك التهمة الأخيرة لزوجتى أكثر مما أعجبتها حكاية الهتر الهستيرى وانفصام الشخصية . لكنها اقترحت على الطبيب أن يضع فى تقريره ، بدلا من « استحلاب الأفيون » ، « تطاطى عقار الهلوسة » ، باعتبار ان العامة هم الذين يستحلبون الأفيون ، أما عقار الهلوسة فيتعاطاه الناس المحترمون من أبناء البيوتات . وبطبيعة الحال ، أجابها الطبيب الى ما طلبت ، فباتت تحت يدها شهادة رسمية مختومة من المستشفى بأنى رجل مصاب بالهستيريا ، والهذيان ، ومدمن على تعاطى عقار الهلوسة . لكنها احتفظت بالهستيريا والهذيان لنفسها ، لاستخداماتها

الخاصة مستقبلا ، واكتفت بذكر الادمان.وكما هو الحال بالنسبة لكل تصرفات زوجتى ، كان ذلك متصفا ببعد النظر من جانبها والدراية بأخـلاق وطباع أصدقائها ، ومعارفها ، وأقاربها . فالتهمتان الأوليان فى تقرير ذلك الطبيب لا مؤدى لهما فى الواقع الا أنى رجل مخبول ، وهو ما لا يتطلب براعة من أحد حتى يدرك أن اعلانه يكون مثار شماتة وضحك وتعليق وغمز ، من جانب الأصدقاء ، والمعـارف ، والأقرباء ، خاصـة النساء ، فيتغامزن عليها من وراء ظهرها قائلات : « مسكينة . سمعت بما حدث لزوجها ؟ » أو « مسكين . سمعت بما فعلته به ؟ » ، وأشياء كهـذه . ولذا فانهـا لم تعلن الا حـكاية الادمان . فهذه ــ بالنظر الى ظروف العصر وما تكتبه الصحف والمجلات عن ادمان الأوربيين والأمريكيين لتعاطى عقار الهلوسة ــ تهمة غير مشينة تمكن مناقشتها بلا حرج أو شعور بالعار ، باعتبـار انها مرض من أمراض الحضارة أصبت به ، تحت تأثير الضغوط الاجتماعية ، وانى سأعالج وأشفى منه بالطرق العلمية المعتمدة . فوق أن التهمة فى ذاتها تتيح لزوجتى ــ على المستوى الحميم ، بينى وبينها ــ أن تظل تؤنبنى وتوبخنى وتلقى على المواعظ قائلة « رجل فى مثل سنك . رجل فى مثل مكانتك » الى آخر هذا الكلام المسموم .

وهكذا شاع ، فى المستشفى أولا ، ثم فى كل الأوساط

بعد ذلك : أنى مدمن عريق ، وأنى أتعاطى عقار الهلوسة خفية ، وباتنظـام •

وتتيجة لذلك كله ، ساءت سمعتى كثيرا • شاع عنى أنى رجل سائب أفعل فى الخفاء أشياء لا يجرؤ على فعلها أحد •

وفى مبدأ الأمر ، ساءنى ذلك ، لا أدرى لم • وكان أشد ما أزعجنى ، سلوك الممرضات معى • فلم يكد الكلام يتناثر ، وتشيع تلك الأشياء عنى ، حتى خلعن برقع الحيـاء والتحفظ معى ، وكففن عن اصطناع ذلك الجو المتعالى الممعن فى الجد والكفاءة حيالى • ولقد شككت دائما فى ذلك الصنف من النساء، وتصورت أنهن ، لفرط ما يرين من موت وميلاد ومعاناة ومرض، وما ينكشف أمامهن من أجساد ، يفقدن ذلك الاحساس المبالغ فيه بخطورة الأشياء فيستوى عندهن كل شيء ويبيت مباحا • وقد تأكدت ظنونى بأسوأ ما توقعت ، وتبين لى أنى ــ كدأبى الى أن وقع ذلك الحادث ــ كنت شديد التحفظ بالغ السذاجة فى تصوراتى • فلم تكد تلك السمعة السيئة تشيع عنى ، حتى قبلت ــ بطريقة تلقائية لا تعقيد فيها ــ فى عالمهن • لم تعد بينهن وبينى كلفة ، أو تورع • كل أسرار المستشفى ثرثرن بها بمسمع منى • نمرة كذا سيموت بعد الظهر ، على الأرجح • زوجتـه خرجت مع الدكتور فلان ، ليلة أمس ، ثم عادت الى المستشفى بصحبته ، فقضت الليلة معه فى غرفة المرافق التى تنزل فيهـا

بجوار غرفة زوجها • السستر الايطالية تحابى المرضة المصوصة فلانة • طبعا • أنت تعرفين علاقة السستر بها • ههه ! سمعت آخر أخبار نمرة كذا ؟ عرض على الدكتون فلان أن يشترى منه الدكتور الأشقر الذى يسير وراءه • لكن الأمر زاد عن حده عندما حاولت بنت منهن أن تبيعنى خمس قطع من السكر بعشرة جنيهات بادعاء انها مشربة بعقار الهلوسة •

حتى مها ، ابنتى وصديقتى الوحيدة فى الأسرة ، تغيرت نظرتها الى • تجلس واضعة وجهها الحلو بين كفيها ، وتتأملنى كأنها ترانى لأول مرة • ثم قالت لى ذات يوم :

ـ أنا غاضبة منك ، وكان يجب أن أخاصمك •

قلت بانزعاج حقيقى ، فنحن صديقان من زمن طويل :

ـ منى أنا ؟ ماذا فعلت ؟

قالت وهى تمط شفتيها :

ـ انه • مازال بوسعى أن أخاصمك فعلا •

قلت ، وقد حدثنى قلبى بسوء تكون لزوجتى يد فيه :

ـ ألا تخبرينى بما فعلت ؟

وثبت على الفراش ، غير عابئة لضماداتى وعظامى

المكسورة ، فوضعت يديها على كتفى وأخذت تمعن النظر فى وجهى ، ثم ضحكت ، وقالت :

ـ لمـاذا أخفيت ذلك عنى ؟

قلت وغمة ثقيلة تنزاح عن صدرى لحظة وأنا ألمس بأطراف أصابعى وجنتها :

ـ أخفيت ماذا عنك ؟ تعرفين أنك أصبحت حسناء يحسب لها حساب ؟

هزت أصبعا فى وجهى وقالت :

ـ أنا أعرف كل الاعيبك . لا تحاول أن تغير الموضوع. لمـاذا أخفيت عنى مسألة عقار الهلوسة ؟

خرست . لم أجد ما أقوله لها . كيف أجعلها تفهم ما هو حادث لى ؟ كيف أجعلها تصـدق أنى لا مجنون ولا مدمن ، وان تلك الأحاديث التى تدور فى غرفتى ليلا ، والصرخات ، والضحكات ، وتحطيم زجاج النوافذ وزجاجات الدواء كلهـا أشياء لا يد لى فيها ، ولا قدرة لى على منع زوارى الليليين من الاتيان بها ؟ كيف أجعلها تدرك محنتى ؟ بل وكيف أجرؤ فأسألها عن تلك البنت ذات الشعر الأحمر ، التى اختفت فلم أعد أجد لها أثرا ؟ قلت بصوت ضعيف :

ــ أنت تصدقين ذلك عنى ؟

قالت ، ونظرة جادة تزاحم الضحك المتواثب فى عينيها وعلى شفتيها :

ــ أنت لا تفهم . ليست بك حاجة الى اخفاء شىء عنى . أنا فى صفك . لكنى غاضبة منك لأنك لم تخبرنى من مبدأ الأمر .

ثم بدأ بعض كبار الموظفين يزوروننى . جاءوا فرادى ، على فترات متباعدة ، فجلس الواحد منهم ، فى كل مرة ، ناظرا الى بشماتة صريحة عجبت لضراوتها . ورغم أنى كنت ــ كغيرى من الناس ــ أعرف جيدا القاعدة الذهبية القائلة ان كل واحد منا هو العدو وان موته أو سقوطه أو دماره هو انتصار شخصى لكل الآخرين ، فانى لم أستطع أن أكف نفسى عن الانسياق وراء تساؤلات بدت لى دائما سخيفة وغير مبررة عما عساه يكون الأصل فى تلك الحزازة العامة ، هذا المقت المتبادل المشرب بصديد . وقديما ، كانت تلك الحزازة ، اذ تفلت أحيانا من وراء الأستار المسدلة فى العيون ، تثير فى ضنى وبأسا لا حدود لهما . لكنى تغيرت . بالحقيقة تغيرت . وعندما توافد زوارى من الزملاء ، واحدا بعد آخر ، وجلسوا يتأملوننى شامتين ، شعرت بنشوة غريبة . بانطلاق لا يحد . شعرت كما لو كنت

أحلق وأعب الهواء ملء صـــدرى . وحتى عندما زارنى وكيل الوزارة ، فجلس بوجه مقفل ، وسحنة مقلوبة ، قائلا انه تقرر اجراء جرد شامل ودقيق ، سرى وعاجل فى كل الأقسام التى كنت أرأسها ، وتشكيل لجنة حكومية للتنقيب ــ على مستوى بالغ الانحطاط ــ فى خلفيتى ، وعاداتى ، وعلاقاتى ، واتصالاتى ، والأقاويل التى تتردد عنى ، تمهيدا لطردى من خدمة الحكومة ، ووضعى تحت الحراسة ، ربما ، لم أحزن كثيرا .

المــيراث

طالت اقامتى بالمستشفى ، فازدادت الأمور سوءا . لاحظت أن الجميــع أخــذوا يتحفظون معى فيما يقولون ؛ ويتوخون الحيطة فيما يفعلون ، بشـــكل أثار ضجرى . أولاد الحرام ! يظنوننى مجنونا ومدمنا بحق . هل خطر لواحد أو واحدة منهم أن يقف على حقيقة ما كان حادثا لى ، ويساعدنى ؟

أختى الكبرى ، عندما جاءت أخيرا لزيارتى ، دخلت الغرفة بوجه مقفل ، استطال أكثر ، وبات أشد قبحا ، جلست محــاذرة لنفسها بعيدا عن الفراش ، وكأنها تعود مصابا بالطاعون الدملى ، مزمومة الشفتين ، وكأنها تشم فى الغرفة رائحة خبيثة . ولم تأت بزوجها معها . لم أكن متيما بصحبة زوجها ، لكن عدم مجيئــه معها بدا غريبا . فهى لا تذهب الى أى مكان الا وهو فى أذيالها . لأن الرجل ضعيف ازاء الخادمات والفلاحات ، وله فضائح كثيرة ومخاز لا تحصر بسبب ذلك الداء . سألتها ، متغابيا ، لأتأكد من صواب تفسيرى لعدم اصطحابها اياه :

ـ لم يأت عواد معك . خيرا ان شاء الله ؟

قالت ، دون أن يطرف لها رمش :

ـ سافر الى العزبة .

قلت ، مبتسما لها ابتسامة صفراء :

ـ وتركتيه يذهب وحده ؟

قالت محتدة ، وقد استفزها تلميحى :

ـ ماذا كنت تتوقع ؟ انه موجود خارجا ، بالردهة ، فى انتظارى .

قلت متصنعا الدهشة :

ـ يا لله ! لم ؟ أى شىء جعلك تفعلين ذلك ؟

قالت وهى تهم واقفة أ

ـ عواد بك رجل محترم .

ضحكت بيذاءة . فأولتنى ظهرها ، ذاهبة الى الباب ، متظاهرة بالغضب . لكنها كانت لا تبغى الا الهرب قبل أن أقول شيئا آخر . نظرت فى أعقابها وهى تمخر أرض الغرفة كسفينة شاهقة رافعة صدرها العظيم أمامها ، محاولة أن تمحقنى بازدراء وادانة . تركتها حتى وضعت يدها على مقبض الباب ، فقلت :

ـ ذلك الولد . ما اسمه ؟ اسامة ؟ كيف حاله ؟ يجب أن تراعى صغر سنه ، فتتقى الله فيه .

جمدت حيث كانت ، يدها على مقبض الباب ، وظهرها الى . كأن جبل جليد انهار فوقها . ندمت . تصببت عرقا . وددت لو كنت قد قضمت لسانى قبل أن أقدم على فعلة دنيئة كهذه . الولد ابن أخت زوجها . وهى تنفق عليه وترعاه بحجة انها لم تنجب ، لكنها ـ فى حقيقة الأمر ـ اتخذته عشيقا لها ، اكتشفت ذلك بمحض مصادفة ، ولم تعرف هى أنى وقفت على سرها . واكتشفت أيضا أن أم الولد على علم بالأمر كله . لكن شقيقتى ثرية . ولم أكن قد تفوهت بكلمة عن ذلك الموضوع ، منذ أن وقفت عليه ، لأحد ـ حتى تلك اللحظة . لم يكن يجدر بى أن أفعل ذلك . فتحت فمى كالأبله محاولا أن أقول شيئا أصلح به ما فعلت ، فلم يخرج صوت من فمى ، وقد التفتت الى أختى بيضاء الوجه ، غائضة اللون ، كصفحة ممحوة ، رأيت الخطوط المحفورة فى جبينها ، وركنى عينيها ، والشعر الأبيض الذى لم تفلح الصبغة غالية الثمن فى التعمية تماما عن لونه الفاضح ، والجيوب التى لم يجد كريم الهرمون فى ازالتها من تحت العينين ، وامتلأ قلبى شفقة وندما . وتذكرتها وهى بنت صغيرة بضفيرتين ، تنزل مرحة مزقزقة من سيارة أبى ، عائدة من المدرسة . مددت يدى ، كالمستغيث بها ، أريد أن أقول لها

شيئا ، لكنها استدارت وخرجت من الغرفة . أخذت أردد فى سريرتى شتائم مقذعة صبتها كلها على رأسى . وفجأة ضحكت . لم أكن أتصور أن بداخلى مثل ذلك المنجم من البذاء .

لكنى لم تتح لى فسحة من الوقت للاستمتاع بشتائمى ، اذ انفتح الباب ودخلت منه زوجتى مكفهرة الوجه كأعصار . قالت :

ـ هذه المرأة ، اختك ، قابلتها فى الردهة .

قلت بلهفة أثارت دهشتها :

ـ تشاجرتما ؟

ووراء سؤالى تفكير بالتمنى فأختى صنو لزوجتى وأكثر . ولو كانت قد تصادمت معها وهى خارجة من غرفتى بكل تلك الشحنة من الغضب ، لوقعت فى ردهات المستشفى معركة من تلك المعارك الرهيبة التى كانت تدور فى أحقاب ما قبل التاريخ بين الديناصورات .

نظرت الى زوجتى بترفع وازدراء ، وكأنها حدست تصوراتى الدموية ، وقالت :

ـ لم ترد تحيتى . تصور انها مرت بى ولم ترنى .

وبغير تفكير ، قلت أسوأ شىء كان يمكننى قوله ، ولا أدرى أى شيطان أجراه على لسانى :

ــ تلمسى لها عذرا • فقد أثرت أعصـابها • تحدثنا عن الميراث •

انحطت زوجتى على أول مقعد لحقته ، وأفلتت منها ــ كما توقعت تماما ــ صرخة حيوانية صغيرة ، وقد جمدت يدها فى الهواء بدبوس من تلك الدبابيس الطويلة العديدة ذات الرؤوس الكروية السوداء التى تغمدها فى قبعاتها ، والتى طالمـا قلبت فى ذهنى الطرق الكفيلة بجعل دبوس أو دبوسين منها ينفذان الى داخل تجويف الجمجمة • قالت ، بصوت مبحوح :

ــ الميراث ؟

اتتابنى عجب حقيقى لفعلتى ، وكأن فاعلها شخص آخر غيرى • وعجبت أكثر اذ وجدتنى مستمتعا بما أحدثته فى نفسها من زلزلة بهذه الكذبة الخرقاء الممعنة فى القسوة • فحكاية الميراث هذه كانت من الأشياء التى جعلت زوجتى تصمد لعاديات حياتنا الزوجيـة طوال كل هـذه السـنين • كانت ــ بالحقيقـة ــ فيما يخصها ، الشىء الذى صلب عودها ، وترك فى آخر الدرب أمام عينيها المحمرتين فى معظم الوقت بالغضب بصيصا من نور • والحقيقة أن الميرات كان هنـاك • وكان جسيما • فهو عزبة بأكملها من أخصب أراضى المنصـورة كتبها أبى ، فى حياته الشقية ، باسـم اختى الكبرى ، بعقد بيع وشراء صورى ، ثم ــ بعد موته ــ وجدنا انه ترك وصية نص فيها على أن تقسم

العزبة بين أولاده الأحياء بالتساوى اذا لم تنجب اختى ــ قبل سن الخامسة والخمسين ــ ولدا .

ولذا فانى ، عندما قلت لزوجتى انى كنت أتحــدث الى اختى فى موضوع الميراث ، لم أكذب كثيرا . لأنى عندما طعنت اختى تلك الطعنة الخسيسة فذكرت موضــوع الولد اســامة ، ذكرت ــ ضمنا ــ موضوع الميراث . فأختى المســكينة لم تكن امرأة منحلة . كانت فقط تريد أن تنجب ، قبل سن الخامســة والخمسين ، وكان الولد اسامة الحل الوحيد الذى ما من شــك فى انها توصلت اليه بعد عذاب ومعاناة ، لأنها كانت قد يئست من زوجها عواد ، ولم تجد فى نفسها القدرة على محاولة البحث عن رجل غريب من خارج الأسرة .

نظرت الى زوجتى . لحقها تحول . دبت الحياة فى عينيها . استيقظ بداخلها شىء . قلت لها :

ــ كان ينبغى أن اتــكتم الأمــر الى أن أســويه معهم ، فأفاجئك به .

وقفت فاغرة الفم لا تستطيع أن تنطق . تملكنى شــعور صبيانى وشرير بالانتصار وأنا أراها زائعة العينين وذلك الشىء الذى استيقظ فى داخلها فجــأة يكاد يقتلها . تقدمت المرأة فى السن كثيرا . لم تعد كما كانت ممتلئة شــواظا ونيران . مرت

سنوات وراء سنوات وبراكينها خامدة . سمنت ، وبردت ، وغاصت قدماها فى الأرض ، فثبتت واطمأنت . لم يعد يثيرها شيء . باتت الحياة موثوقا فيها خلوا من الألاعيب والانقلابات والحروب الصغيرة . ثم فجأة ـ أحدثت بكذبتى ذلك الزلزال الصغير فى داخلها ، فتكسرت القشرة ، وأوشكت هى أن تنكسر ، لأنها لم تعد لها طاقة بشيء من ذلك .

رغم الجذل الذى تملكنى فانتشيت به وخجلت منه ، راودنى شعور بالشفقة والندم ، كما حدث عندما باغت أختى الكبرى بتلك المكاشفة عديمة الرحمة . ماذا حدث لى ؟ أنا لم أكن هكذا . نظرت داخلا ، بدهشة حقيقية ، وشيء من الجزع . وضحكت . تذكرت منظر ذلك الرجل معوج الخلقة الفاغر فمه على باب الدائرة ، وذلك الشخص الأعور لابد له بداخله ، ينظر بلؤم ، ويلوك بفمه . ليس بداخلى أحد . لم يسكننى أحد . ولكن ، ما هذا الذى يحدث ؟ هأنا راقد فى الفراش مستريحا ، لا أحمل هما ، غير عابىء لشيء أو لانسان ، وأخلاقى تتدهور من يوم الى يوم وتزداد سوءا . بدأت أعابث الممرضات معابثات وقحة وجريئة وهن ينحنين على الفراش ليؤدين تلك الأعمال اليومية الصغيرة غير المجدية التى بدا لى أنه لا يوجد ما يدعو اليها الا اصرار ادارة المستشفى على جعلهن يفعلن شيئا مقابل ما يتقاضينه من نقود قليلة .

بدأت تلك الأشياء تروقني بدرجة أثارت قلقي . هذه أفاعيل مراهقين ، قلت لنفسي . فأجابني صوت زوجتي من داخلي : « شيء محزن . هذه أفعال سن اليأس عند الرجال » لكن شيئا مما ظلت تردده في سمعي تلك الأصوات الداخلية لم يثنني عما كنت سادرا فيه . لأول مرة في حياتي أحببت النساء حقا . لم أحبهن ذلك الحب الذي قرأنا عنه بغباوة منقطعة النظير في « ماجدولين » ، و « آلام فرتر » ونحن في المدرسة الثانوية . ولم أحبهن ذلك الحب الشائه كريه الرائحة الذي مارسناه في شارع عماد الدين ونحن في الجامعة . أحببتهن ككائنات حلوة ، خفيفة الظل ، نزقة ، متقلبة ، قادرة على الضحك والبكاء في آن معا . شعرت بمتعة في صحبتهن التي لم تكن تدوم طويلا ، في غرفتي ، شعرت وأنا ممدد على ظهري ، مجبسا ، مكسورا ، مقمطا بالضمادات والأربطة ، كنصف مومياء ، بأني أحلق قرب سقف الغرفة . شعرت طوقا من حديد يسقط من حول رقبتي ، وطوقا من حول كاهلي . أصبحت خفيفا وطافيا . وكلما دخلت الغرفة بنت جديدة لم أرها قبلا ، كانت تجتاحني موجة اثارة ، وتتسارع دقات قلبي بجذل كان جديدا على بحق . وأنا أتساءل ترى كيف ستكون استجابتها لمعابثاتي . لكنهن ــ كلهن ــ كن قد بدأن يتفاهمن معي . نقود كثيرة مرت من يد الى يد في تلك الغرفة . ضجت زوجتي من كثرة طلباتي . شهدت تلك الغرفة

المشرقة بلون حيطانها السماوى ، وستائرها ، وزهورها التى تغير كل يوم ، صفقات مريبة عديدة يندى لها الجبين ، كانت تعقد دون أن يطرف لأحد جفن • وقد تبين لى ان هـذا الصنف من الفتيات يتصف ــ بمفارقة لا نهاية لغرابتهـا ــ بأمانة نادرة متأصلة فى أعماقه • وجدتهن لا يأخذن شيئا مقابل لا شىء • فالنقود من فرط صعوبتها ، فيما يخصهن ، تنطوى عندهن على ترابطـات سحرية ، ومحرمات ، وأشـياء مضحكة عديدة • عندما أخـذن نقودى ، بات من المتعين أن يفعلن شـيئا من أجلى مقابل تلك النقود • تعلمت على أيديهن أشياء كثيرة لم أكن أتصـور قبلا انها ممكنة •• ورغم أن خاطرا ظل يلح على بأنهن ، ربما ، أخذتهن شفقة بى ، فانى احتميت من ذلك الخـاطر بالتأكيد لنفسى أنى كنت على حق فى تصـوراتى الأولى فيما يخص العلاقـات غير المستقيمة بين معطى النقود وآخذها •

يوما بعد يوم انسقت على عباب ذلك التيار • لم أكن قد جننت ، طبعا • على العكس تماما • بدا لى أنى لم أكن فى يوم من الأيام أعتل مما كنت فى تلك الفترة الغريبة التى سبقت تحولى النهائى • ولم تكن لى فى الأمر حيلة • فذلك الرقـاد على الظهر باسترخاء كامل ، بغير مسئوليات ، أو مخاوف ، أو هموم ، بغير مواعيد ، وبغير مرض حقيقى يتهدد الراقد بميتة عاجلة تضـع حدا لحياته ، شىء ضار للغاية • ضار لأى شىء ؟ العادات العقلية

لا تموت بسهولة ، فيما يبدو . حتى فى تلك المرحلة المتأخرة كنت مازلت أفكر أحيانا كما علمتنى زوجتى .

يفكر المرء ، وهو راقد على ظهره ، كثيرا ويقلب الأمور على وجوهها . فلديه وقت . وليس هناك ما يفعله الا آن يثبت فى مكانه ، ويزاول عمليات التمثيل الغذائى ، والتنفس ، والافراز جيدا ، كشجرة ، وينمو مثلها ، دون أن يكون مطالبا بأن يورق، أو يزهر ، أو يثمر شيئا ، أو يثبت لأحد أنه شجرة منها منفعه تستحق ألا تقطع . وبذا يصبح لديه كل ما فى العالم من وقت ليرى الأشياء من داخلها وخارجها كما هى حقيقة ، ويعيد تركيبها ، ثم يفككها من جديد ، فينتابه ضجر منها ، ولا يعود يقيم لها الوزن الأخرق الذى كان يقيمه قبلا . فينحل . تتدهور أخلاقه . يشعر شعور ثعبان يغير جلده . يغيره داخلا وخارجا . ينضو عنه أغلفته ، وأقمطته ، وأشياء رازحة كثيرة .

وذلك هو ما حدث لى فى تلك الغرفة ، وأدركت أنه حادث ، فلم أقاومه أو أعترض عليه أو أجفل منه . فى أحيان متفرقة فقط ، كنت أحس خجلا . وفى أحيان أخرى كنت أتصبب عرقا وينتابنى خوف ، فأمد يدى ، وأعرى ذراعى ، فأحملق فيهما متوقعا أن تضرب فيهما خضرة ، وتتراكب على جلدهما قشور صلبة لامعة ، فينتابنى غيظ ، وآخذ فى السباب ببذاءة .

عندما ينتصف الليل

وقف عبد العاطى بجانبى ، فى كل ذلك ، وساعدنى كثيرا . لم يتخل هو وأصحابه عنى . منذ أول ليلة لى بالمستشفى ، ووعيى مازال مشوشا من أثر الصدمة ، والخوف ، والعمليات ، والتخدير ، والعقاقير التى ضخوها فى عروقى ، دخلت الغرفة ممرضة فى زى الراهبات ، فجلست على حافة الفراش ؛ وأخذت رسغى بين أصابعها لتقيس نبضى . أحسست حرارة غريبة تسرى فى الذراع كلها ، صاعدة الى الكتف ، لتشيع فى جسدى كله . أمعنت النظر فى وجهها ، محاولا التركيز ، فتأملتنى لحظة ثم قالت :

ــ لم تعرفنى ؟

انحنت فوقى ، فقربت فمها ، بشفتين منفرجتين ، من فمى ، وكأنها تنوى أن تقبلنى . لفحتنى أنفاسها ساخنة وفيها عبق غريب غير منفر ، فزادتنى ذهولا عما كنت فيه ، ثم رفعت يدها فخلعت

رداء الرأس الأسود والأبيض ، فاندلع شـعرها الأحمر اللامع الغزير موجـة اثر موجة حول وجههـا الذى بدا لى شاحبا • وقـالت :

ـ حقيقة لم تعرفنى ؟

قامت فذهبت الى باب الغرفة وفتحته ، فدخل عبد العاطى بحركاته المتلصصة وهو لا يكف عن التلفت حوله والنظر وراء من فوق كتفه • وقف عند قدمى الفراش ناظرا الى بكآبة • ثم قـال :

ـ كيف حالك الآن ؟

فلما لم أجبه • هز رأسه هزة أسف • وقال :

ـ كان يمكن أن تقتل فى حركة خرقاء كهذه •

مددت يدى الى الجرس وقد احتدم غضبى • وددت لو طلت عنقه النحيل المزعزع وأطبقت عليه فأزهقت روحه • سأجعلهم يلقون به خارجا • من الذى سمح اه بالدخول فى وقت متأخر من الليل كهذا ؟ لكنى سمعت الفتاة ذات الشعر الأحمر تضحك ، وفى اللحظة نفسها انتفضت يدى بعيدا عن زر الجرس • أدرت رأسى بصعوبة ، ومن طرف عينى نظرت فاذا زر الجرس رأس ثعبان قد التف جسمه حول قائم السرير مكان السلك الكهربائى ولسانه المشقوق يندفع داخلا خارجا بحركات خاطفة ، يكاد يلمس

خدى . نظرت الى الفتاة ، فاذا بها آخذة فى خلع ما عليها من ثياب الراهبات . قال لى عبد العاطى بصوت خاب :

ـ لا فائدة من كل هـذا الذى تفعله . أنظر ماذا حـدث لك عندما حاولت أن تهرب منهن ؟ لقد وضعن أعينهن عليك . ثم انهن لا ينوين بك شرا .

شىء ما فى صـوته جعلنى انتزع عينى من الفتاة لحظـة لأنظر اليه . قلت مغتاظا :

ـ لا أريد من أحد خـيرا ولا شرا . الله يلعنـك فى كل كتاب . أنت الذى ..

ولم أتم قولى . نظرت الى الفتاة غير مصدق وقد أوشكت أن تتجرد تماما :

ـ يالله ! هذه المجنونة خلعت كل ثيابها !

قال وهو يرمقها ، غير مكترث لعريها الذى افزعنى :

ـ لا عليك . ستأتى أخريات الآن ، ويفعلن مثلها . وفى الصباح ، سـتكون قد شفيت تماما من كل ما بك من جراح وكسور .

فتحت فمى لأصرخ والفتاة تتجول أمام عينى ، واستطرد عبد العاطى بالصوت الرتيب نفسه :

ـــ لا داعي لاحـــداث ضجة . انها لا تقصـــد شـــيئا . سيقيمون عليك بعض شعائرهم .

نظرت مبهوتا وقشور خضراء تتراكب وتنتشر على جلد العنق هابطة الى الجســـد الناعم الفتى فتغلفه بقشرة صـــدفية التمعت بألوان متغيرة كلما تحركت الفتاة أو اهتز جسدها . ثم نظرت الى الوجه الجميل بهالته الحمراء المتوهجة فاذا به رأس أفعى ناشرة يتمايل فى حذر ونظرة من العينين مسلطة على لا تحيد ، فانطلقت الصرخة من حلقى قبل أن يتمكن عبد العاطى من وضـــع يده على فمى ليكتمها متوسلا الى أن أكف عن الصراخ . ازحت يده الرخوة المبتلة عن وجهى ، وصرخت ثانية بكل ما فى من قوة ، والفتاة تتقدم بحركة ثعبانية ، فيقترب وجه الضل من وجهى ، وتلفحنى من الفم المفتوح أنفاس حارة فيها شبهة نتن ، وعبق بخور .

ارتفع فى الردهة خارجا لغط ، وعلا وقع أقدام . لكن الباب عندما انفتح عن وجه الممرض ووراءه وجه السستر الايطـــالية الجهم ، لم يكن بالغرفة أحد غيرى .

دخلت السستر ، فأضاءت النور ، ووقفت واضعة يديهـــا فوق حقويها ، وقالت بفرنسية ركيكة :

ـــ ماذا حدث ؟ ما هذا الصياح ؟

قلت وجسدى كله مازال ينتفض ، وأنفاسى لاهثة :

نظرت حولها ، ثم تبادلت مع الممرض نظرة ، وقالت :

ـ لا أرى بالغرفة أحدا . من هم الذين كانوا هنا ؟

قلت :

ـ شخص أعرفه . اسمه عبد العاطى . ومعه بنت ذات شعر أحمر ..

أطبقت فمى وقد كدت أقول : « خلعت ثيابها ، وتحولت الى أفعى ناشرة » .

قالت السستر :

ـ لم نر أحدا يخرج من الغرفة . هل رأيت أنت أحدا يخرج من الغرفة ؟

هز الممرض رأسه نفيا ، مغالبا ضحكه . فقالت المرأة ، متذرعة بالصبر معى :

ـ من أين خرجا اذن ؟ لا تقل انهما مختبئان تحت الفرش .

قلت مغيظا :

ـ كانا هنا . خرجا من النافذة . لا تنظرى الى هكذا ، الله يلعنك . خرجا من النافذة !

نظرت الى مليا ، ثم قالت :

ـ من النافذة ، هه ؟ يا بك • هـذه الغرفـة بالطـابق الخامس •

ثم قالت للممرض شيئا بصـوت منخفض ، فغاب لحظـة والسستر تتأملنى ، ثم عاد وبصحبته ممرضة بيدها وعاء معدنى صغير • وبعد لحظـات كانوا ثلاثتهم قد تغلبوا على مقاومتى • وحقنونى بدواء منوم •

ولم تنقطع زيارات عبد العاطى بعد تلك الليلة • فى مبدأ الأمر ، تملكنى غيظ جعلنى أود لو هدمت المستشفى على رأسى ورؤوس من فيه • غاظنى عجزى • ما الذى كنت مستطيعا أن أفعله وأنا ملقى على ظهرى ، نصفى فى الجبس ، والنصف الآخر مقمط بأربطة وضمادات ؟ ثم ان أقل حركة ـ خاصـة بعد تلك المعركة غير المتكافئة بينى وبين السستر والممرض والممرضـة ـ كانت تخترم جسدى بأسياخ محماة من الألم • وفى صباح كل يوم ، كنت أحاول أن أروى لمن كانوا يأتون لمشاهدتى من أطباء دون أن يفعلوا من أجلى شيئا يذكر ، تلك الأشياء التى كانت تحدث لى ليلا • حاولت مرة بعد مرة أن أجعل أحدا يصـدق أن الليل لا يكاد ينتصف حتى تمتلىء الغرفـة بعبد العاطى ومن معه • لكن أحدا لم يصدقنى • نظروا الى وهم يحكون ذقونهم بأصابعهم محاولين الظهور بمظهر الاصغاء والتفكير الجـاد فيما

قلت لهم . ثم تبادلوا النظرات فيما بينهم ، وقال كبيرهم شيئا للستر اللعينة ، فنظرت الى بشماتة ، وأشارت لاحدى الممرضات . وبعد لحظات ، كنت مستغرقا فى نوم ثقيل .

لكنى لم أكد أغمض عينى حتى وجدت عبد العاطى قاعدا بانتظارى ، وعلى وجهه الرمادى المهضوم المتعب نظرة أسى وعتاب لا ضغينة فيها ، وهو يقول :

ـ ألا تريد أن تقتنع ؟ انهم لا يصدقون . لن يصدقك أحد . يتصورون انك تهذى . لن يستفيد أحد من كل هذا الا زوجتك . انها تنتظر فرصة كهذه منذ سنوات لتحصل على اثبات رسمى بجنونك . ستسجنك فى احدى المصحات فلا تبرحها الى أن تموت .

وأنا حبيس الجبس والضمادات ، مغلولا الى ذلك الفراش ، نظرت اليه وهو واقف يتأملنى مكتئبا ، فأخذت أسبه . لم أجد ما أقاومه به الا اللعنات . قلت له أشياء فظيعة . لا أدرى من أين واتتنى كل تلك الشتائم واللعنات . وعندما أفقت من تأثير المخدر ، بادرتنى الممرضة الجالسة بجوار الفراش لملاحظتى بالسؤال وهى لا تتمالك من الضحك :

ـ ما هذا الذى كنت تقوله فى نومك ؟

فسألتها بوهن :

ـ كنت أتكلم فى نومى ؟ ماذا قلت ؟

قالت الفتاة ضاحكة وهى تقيس حرارتى ونبضى :

ـ قلت ؟ قلت ما فيه الكفاية وأكثر • من أين تأتى بكل هذه الشتائم ؟ لم أسمع فى حياتى بذاءة كالتى خرجت من فمك وأنت نائم •

نظرت الى باعجاب حقيقى ، وقالت :

ـ خسارة أن يضيع كل ما قلته فى الهواء • كان ينبغى أن يسجله أحد !

أخذت اعتذر • بوغتت البنت ، فنظرت الى غير مصدقة ، وقد أحمر وجهها ، ثم ضحكت قائلة :

ـ لو سمعتك السستر !

وأسرعت خارجة من الغرفة •

وعندما تقدم الليل فأوشك على الانتصاف ، أحدثت ضجيجا أحدث أثره ، فأتى بالسستر مستاءة ، وهى تمضغ • لم تكن المرأة تصلى كما تصورت • كانت تأكل طعام المرضى • لسبب ما نشبت بينى وبينها كراهة متبادلة من أول نظرة ، فألبت على كل زميلاتها الايطاليات •

قالت بفرنسيتها المكسرة :

ــ ماذا تريد الآن ؟

هذا صوت راهبة ؟ قلت وسـباب بذىء بالعربيـة يتخلل كلمـاتى :

ــ أريد أن يظل بغرفتى أحد حتى طلوع النهار .

نظرت الى المرأة نظرة لابد أنها تعلمتها فى أحد بيوت نابولى سيئة السمعة :

ــ رجل فى مثل سنك !

قلت لها كلمة بذيئة امتقع لها لونى على الفور ، وتصببت عرقـا .

وددت لو قتلتها . قلت :

ــ لا أريد وقاحـة منك . هـذه الثياب التى ترتدينهـا لا تخدعنى لحظة . أنا أرى ما تحتها .

قالت ووجهها المترهل يحتقن وبغضـاء لا مكان فيها للخد الأيسر تطل من عينيها :

ــ ليس عندنا جلساء أطفال .

قلت بالايطالية :

ــ بوتانا !

أولتنى ظهرها ذاهبة الى الباب ومشيتها ناطقة بالاحتقار • وفجأة توقفت فاستدارت الى ووجهها البذيء طافح بالشر :

ـ مم يخاف البك ؟

قلت وغيظى يفارقنى فجأة كهواء مضغوط قد تسرب :

ـ لو قلت لك ••

لكنى تماسكت لفورى ، ونفورى يشد أزرى ، فقلت لها :

ـ عندما يزورنى الشيطان الليلة ، سأحدثه عنك •

قلبت المرأة شفتها بازدراء ، وخرجت ، فصفقت الباب وراءها •

وبعد منتصف الليل بدقيقة ، جاء عبد العاطى • دخل من النافذة • أغمضت عينى وأشحت عنه • لكن شيئا فى وجهه لحظة أن دخل جعلنى أفتح عينى برغمى ، فأنظر اليه • بدا أكثر نحولا مما كان قبلا ، وأشد تخاذلا • صار لونه رماديا أكثر ، وثيابه المبتلة جفت وتغضنت فلصقت بجسده كقشرة ثمرة معطوبة • قلت :

ـ لا أراك سعيدا معهم •

تهالك على مقعد بجوار الفراش ، وقال :

ـ ما زالوا غير قادرين أن يفعلوا شيئا من أجلى •

قلت ساخرا ، مكابرا خوفى :

ـ وشعائرهم ؟ لم يقيموا عليك شعائرهم ؟ لم تقبل بعد ؟

قال ووجهه يمتقع أكثر :

ـ لا تسخر ، أرجوك . أنت لا تعرف شيئا .

عاد فقال بعد صمت :

ـ ليسوا سيئين كما تتصور . فى معظم الوقت يعطون أكثر مما يأخذون .

قلت وخوفى يطفو الى السطح :

ـ يأخذون ؟ يأخذون أى شىء ؟

اسمع . لقد زهقت روحى . ان لم تكف عن ملاحقتى بهذه الألاعيب ، سأبلغ الشرطة . سأحكى للمباحث . لى الحق فى حماية كاملة منهم . أنا لست ايا كان .

هز رأسه فى كلال وقد بدأ يعرق من جديد :

ـ أنت لا تريد أن تفهم . لا فائدة .

قلت ، محاولا أن أظل متماسكا فى مواجهته ما أمكن :

ـ ما الذى يريدونه منك على وجه التحديد ؟

ضحك ضحكة هزيلة :

ـ منى أنا ؟ ليتهم كانوا يريدون منى شيئا لا أحد يريد منى . لا نفع فى لأحد حتى الآن .

قلت ، وغيظى منه يكاد يخنقنى :

ـ بدأت تكتشف ذلك ؟ لم لا تجد لك مكانا هادئا تذهب اليه فتموت ؟ الموت لمن كان مثلك ستر !

قال : بغير ضغينة :

ـ لا تكرهنى . أنا صديقك . لا تكرهنى .

قلت ، وقلبى يغوص بين جنبى لقوله ، دون أن أدرى لم ؟

ـ أكرهك ؟ أنا لا أكرهك .

قلت بعد لحظة ، وأمل جديد ينبثق فى صدرى :

ـ تريد نقودا ؟ سأعطيك . ولن أجعلك تفعل فى مقابلها شيئا . تبتعد فقط ، وتبعدهم عنى .

ضحك ضحكة صغيرة مخذولة بدا انها كلفته جهدا :

ـ أنت مصر على ألا تفهم . لا تريد أن ترى المسألة ليست مسألة نقود . لا أحد يريد نقودك ، الا زوجتك وأقاربك وربما . أما هؤلاء فيريدونك أنت .

خذلتنى مكابرتى ، وتخلى عنى عدم التصديق الذى

احتميت وراءه منذ البداية . تركنى وحدى فى مواجهة عبد العاطى وأصحابه ، صوته الكابى أقنعنى بما ظللت ــ رغم كل ما رأيت وما انتابنى من خوف ــ أرفض الاقتناع به أو تصديقه .
قلت :

ــ لماذا ؟ لماذا أنا ؟

قام واقفا بجهد واضح ، فقال :

ــ سأذهب الآن . جئت أطمئن عليك فقط .

قلت :

ــ وهم ؟

قال ، ذاهبا الى النافذة :

ــ سيأتون فى طلبك . لا تخف . لن يتخلوا عنك .

سار الى النافذة ، مجررا قدميه ، فاعتلاها . نظرت اليه فى ترقب ، مؤملا أن يقفز ، فيقع ويدق عنقه . لكنى كنت مخطئا .

الفصـل السادس

مـن النافـذة

باتت نافذة غرفتى بالمستشفى كخلية نحل . لا يكاد الليل ينتصف حتى يتقاطروا على منها . وفى آخر الليـل يتسربون خارجين . لابد أنهم كانوا يستخدمون سلما فى الصعود والنزول، فتلك الستر أكدت لى أن الغرفة بالطابق الخامس . ولا يعقل أن يكون صحيحا ما صوره لى خيـالى المشوش من جراء كل ما حدث لى ، فى بعض المرات ، من انهم كانوا — اذ يتسربون خارجين من تلك النافذة بحركاتهم المتلصصة المنسابة — يطيرون. يطيرون حقا ! هـذا كلام عقلاء ؟ لكنى تصـورت أحيانا أنى سمعت رفيف أجنحة . وبطبيعة الحال ، لم أتيقن من شىء . لابد أن ذلك كان من فعل الحمى . وقد لاحظ الأطباء بالفعل شحوب لونى ، فأجروا لى تحاليل وفحوصا عديدة لم يتبين منها أنى ضحية أى اضطرابات أو أمراض عضـوية . لكنهم ملأوا جسدى ثقوبا ، على أى حـال ، بابر المقويات ، والمهدئات ، والعقاقير المنومة ، والمضـادات ، بلا مؤدى ، وبغير جدوى .

مما أقنعني بصحة ما شككت فيه دائما وهو أن تلك الفئة من الناس ، أي الأطباء والممرضات والسسترات ، تمارس نوعا من الشبق « الطب ــ نقدي » تجاه المرضى العزل ، خاصة متى كانوا مكسورين مثلي . وهو شبق مركب من ضرب معوج من الصادية التي تستعذب الوخز والثقب والنقر بالأصابع وجس اللحم والعضلات ، والعبث فيها بالمباضع ، ومن ضرب آخر خسيس من الجشع الذي لا يشبع الى نقود الآخرين . وفيما يخصني ، لم يؤد شيء من كل ما ظلوا يفعلونه بي غير عابئين باحتجاجاتي وسبابي الذي كان يزداد بذاءة واقذاعا من يوم ليوم ، الى أي تحسن في حالتي . كل ما في الأمر أني لم أعد أحس بحاجة الى النوم . فرغم أن زواري الذين كانوا يتوافدون بعد انتصاف الليل ، فيزحمون الغرفة ، لم يكونوا ممن يستطيع أحد أن يخلد في صحبتهم الى النوم ، أو يجد رغبة فيه أو مدعاة له ، لم أجد حاجة في أثناء النهار . الى أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات منه . وبطبيعة الحال ، له يجد محترفو التعذيب الذين كانوا يشرفون على ما وصف بأنه « علاجي » ــ رغم عدم تمكنهم من تحديد طبيعة ما كانوا يعالجونني منه ــ ما يدعو الى القلق أو التساؤل . فقد كانوا يضخون في عروقي ، عند مقدم كل ليلة ، ما يكفي من المخدر والعقاقير المنومة لجعل قطيع من الفيلة يعلو شخيره الى عنان السماء ، وكانوا يتصورون ، تبعا لذلك ، أني أقضي الليل في نوم ملائكي هادىء ومريح .

ولما كانوا قد رفضوا تصديقى عندما أوقفتهم على حقيقة ما كان يجرى ليلا ، وأوشكوا أن يدمغونى بالجنون ، فانى لم أجد التزاما أخلاقيا أو غير أخلاقى يلزمنى بأن أستميت فى الصدق الى الحد الذى يجعلنى أخاطر باتاحة الفرصة لزوجتى بوضعى فى تلك الغرفة المبطنة بالجلد التى بغير نوافذ . خاصة وان محاولتى الأخيرة للاستغاثة بأحد أوشكت أن تودى بى .

فعندما ضيقوا الخناق على وحاصرونى ، كل ليلة ، قمت بما تصورت ـ آنئذ ـ انه آخر محاولة للنجاة ، دون أن يخطر لى أن أتساءل طبعا « النجاة من أى شىء ؟ » . اتصلت بصديق قديم من زملاء الدراسة كان قد تمكن ـ رغم انتماءاته الطبقية ـ الى الافلات من حصار العامة ، واحتلال منصب مرموق . قلت له ، فى اتصال تليفونى ، انى أريد حمايته . أريد حماية رسمية كاملة ، ومحكمة . قال طبعا ، طبعا ، ولكن ممن ؟ من أى شىء ؟ فترددت . ماذا كان يمكننى أن أقول ؟ وفى النهاية ، ذكرت له اسم عبد العاطى وأوصافه . فضحك وقال عبد العاطى هذا ، انه مواطن أليس كذلك ؟ قلت انه يلاحقنى ، ويحاول أن يبتز منى نقودا بالتهديد . فضحك صاحبى بنطاعة وقال : بماذا يهددك ؟ ماذا فعلت ؟ ثم أضاف قائلا : الأحسن أن تعطيه ما طلب ، فذلك ـ فى هذه الأيام ـ أسلم وأكثر حكمة ، أولا لأن النقود تتناقص قوتها الشرائية من يوم الى

يوم ، وثانيا لأن مثل هـذا المواطن ، متى وضع يده على أى مبلغ منها سيجد له امرأة مواطنة مثله ينجب منها عيالا كثيرين ، ويتعـاطى الكيف بافـراط فيموت فى وقت قريب . اغتظت ، فأفلتت من لسانى بعض الشتائم الفظيعة التى باتت تنبثق تلقائيا من ذلك المنجم الذى اكتشفته بداخلى . وسكت محدثى لحظة ، وقد باغتته شتائمى ، ثم ضحـك ، ضحكة زائفـة وقـال ان عبد العاطى ذاك أفادتنى صحبته كثيرا فيما يبدو . فقلت : ولكنه يطاردنى ويزورنى فى غرفتى ليلا ، قادما من النافذة ، فقال محـدثى ، الذى كنت قـد بدأت اندم على اتصـالى به : من النافذة ؟ قلت مغيظا : نعم ، من النافذة . قال باهتمام مشوب بنبرة لم ترق لى كثيرا : وأية أسرار تلك التى يهددك بافشائها ؟ قلت : أسرار نسـائية . فضحـك ، وسـألنى عمـا اذا كان ذلك المواطن قـد التقط لى صـورا أو أفـلاما أو سـجل شيئا مما قلت . قلت : كلا . قال : مم تخاف اذن ؟ على أى حال ، سنتحرى الأمر ، وان كان فى الأمر جريمة ، أو شروع فى جريمـة ، أو تفكير فى الشروع فى جريمـة ، سنلقى القبض عليه . ونقدمه الى العـدالة . لكن العدالة ستكون علنيـة ، كما تعرف . وأضاف ، ابن الحرام ، بورع ، ان الكل سواسية أمام القانون . فأفلتت من لسانى سلسلة من الشتائم . ولم يعلق هو عليها بشىء . بدا واضحا أنه يريد انهاء المكالمـة . وأنه لابد قد سمع بما كان يقال عنى فى تلك الأيام ، وانه ، لذلك

لم يأخذ أى شىء مما قلت مأخذ الجد ، باعتبار أن تلك كلها تخاريف رجل مدمن . لكنى كنت أعرف أن ذلك الصـديق ـ الذى استثقلت ظله ـ دائمـا ـ أملى الأخير . فتشبثت به . صحت فى سماعة التليفون بقوة متصنعا الذعر : كلا ، كلا انتظر . أريد شرطيـا . أريد عددا من الشرطة يقضون الليـل معى فى الغرفـة . فضحك ببذاءة . لكنى تجاهلت ذلك ، واستطردت قائلا : أنـا جريح ، وعظامى مكسـورة ، وحيـاتى مهددة ، ولا أستطيع الدفاع عن نفسى . فقال : الدفاع عن نفسك من أى شىء ؟ الدفاع عن نفسك ممن ؟ قلت وأنا أشـعر بسخف ما قلت : عصابة . قال : عصابة أى شىء ؟ انتابنى يأس . قلت : عصابة من المشتغلين بالسحر الأسود . فسكت ، وظل ساكتا ، حتى تصـورت انه انهى المكالمـة ، فصحت آلو ، آلو : قـال المشتغلين بمـاذا ؟ قلت مبتلعا لعابى : بالسـحر الأسود . ثم اغتظت ، فقلت : ألا تفهم ؟ ألم تسمع شـيئا مثل هـذا قبلا ؟ قال : سمعت . فى الواقع سمعنا عنك الكثير بدا صـوته وهو يقول ذلك غاية فى السخف . والتصنع ، وثقل الظل . سكت لحظة ثم قال : ماذا يريدون منك ؟ قلت قد تخللنى يأسى ، فلم يعد هنـاك ما أتورع عن قوله : يريدون أن يجعلوا عبد العاطى هذا أو شخصا آخر مثله يزاحمنى فى داخلى . قال : يزاحمك أين ؟ قـلت وقـد بدأ صـوتى يعلو وتتحـدد فيـه نبرة من الهستيريا : يزاحمنى فى داخلى . يسكننى . يقيم فى داخلى .

يحتلنى • قال : أين ؟ قلت : فى جوفى • قــال : وهل يوجد له مكان فى جوفك ؟ سمعته يغمغم محدثا شخصا آخر بجانبــه يبدو انه كان يتتبع المكالمة ، وكأنه يشرح له الأمر • لكنى ما لبثت أن سمعت ضحكا • قلت وقد علا صــوتى برغمى فبات حــادا رفيعا مهزوزا : فى داخلى ، فى داخلى ، الله يلعنكم جميعا ، فى داخلى • قال بعد صمت : طبعا ، طبعا • هــذه مسألة خطيرة • فداخل كل شخص يجب أن يظل ملكا خالصا له • سنتحرى الأمر قلت وتتخذ الاجراءات اللازمة فورا • قــال انك بأى مستشفى ؟ غرفة رقم كم ؟

وفى الليلة نفسها ، جاء عبد العاطى لزيارتى بعد أن كان قد اهملنى طوال الأسابيع الأخيرة تاركا اياى لأصحابه ، وقد انتابه يأس منى • لسبب ما كنت قد ركبت رأسى معهم • كلما ازدادوا الحاحا وضيقوا على الخناق ، ازددت مقاومة وعنادا • رغم أنى لم أكن أعرف ماذا أقاوم وعن أى شىء أذود • عرفوا كل شىء عنى ، داخلا وخارجا ، وجربوا كل شىء معى • ورغم ان جنونهم الليلى بغرفتى كان قد بدأ يبدو لى معقولا ، وفى بعض الأحيان ممتعا وباعثا على ابتهاج غريب وحريف ما ، ظللت أقاومهم ، دون أن أعنى حتى بسؤالهم عما أرادوا منى أن أفعله لهم • لم يجدهم كل ما فعلوه شيئا • ظلت هنــاك ثغرة واحدة ضرورية لم يعثروا عليهــا أو يكتشفوا سرها • وقد خطر لى أحيانا أن الفضــل

الحقيقى فى تلك الثغرة التى أعياهم اكتشاف سرها فى دفاعاتى ضدهم كان راجعـا اليهم هم دون غيرهم • لأنى ، نتيجة لكل ما حدث لى بسبب اتصـالى بهم وتعقبهم لى ، كنت قد تغيرت كثيرا • فقدت الكثير من ضروب غباوتى وخوفى وتورعى • وفقدت تلك الخصلة التى تجعلنا نضخم الأشياء ونضفى عليهـا أكثر مما تستحق من الأهمية والجدية والخطورة • وقد خطر لى أنى ــ اذ حـدث لى ذلك ــ بت أشـبه بمن عقـد العزم على الانتحار ــ حرا حرية كاملة • ولم أكن أنوى الانتحار أو أى شىء من ذلك القبيل • فقد جعلونى أشد تعلقا بالحيـاة من أى وقت مضى • لكننى بت شبيها بذلك العاقد عزمه على انهاء حياته بكونى لم أعد أقيم للحياة وزنا ، ولم تعد تغلنى ــ بعد كل ما تكشف لى ــ رغبات أرجو تحقيقها لدى أحد ، أو مخـاوف تجعلنى أطلب رضى أحد • بت حرا • فى لحظات كثيرة كنت أشعر شعور القادر على التحليق فى الهواء بأجنحة مسموعة الحفيف غير مرئية • شعور القادر على أن يذهب الى أى مكان ، ويفعل أى شىء ، ويجرب أى متعة ، ويحتمل أى عذاب • تلك الحرية التى تخيلت أنى حزتها ، كانت على الأرجح الثغرة التى اكتشفتها أنا فى خطوط هجومهم ، والسد المنيع الذى أقعدهم عن اقتحام دفاعاتى • فهم اذ علمونى ــ بغير تعليم ، بل بمجرد احتكاكى بعالمهم الغريب ، المعوج ، الشائه ، المنفر والأخاذ ــ ألا أرغب فى شىء من أحد أو أخاف من أحد ، علمونى فى الوقت ذاته

الا أخافهم أو أرغب فى شيء منهم • ولعل ذلك ، هو الآخر ، كان وهما من تلك الأوهام والتصـورات الملتاثة التى شوشرت فكرى وشـوشت وعيى • ألأنه شيء آخر ذلك الذى جعلنى أصمد لهم ذلك الصمود ؟

فوق أنى عرفت عنهم أشياء كثيرة • بعد صـدمة النفور وعـدم التصـديق الأولى ، قامت بينى وبينهم ألفـة من نوع ما مشـوبة بسوء الظن والحذر • لم أخف منهم مثلمـا خاف عبد العاطى ، ولم أتصبب بمثل عرقه الغزير منفر الرائحـة المثير للشفقة • لكنى تعاملت معهم بسوء طوية • بسوء ظن • ومع ذلك ، تغيرت نظرتى اليهم رويدا • لم أجدهم ـ كما قـال لى عبد العاطى ـ بكل ذلك السوء • لكنى ركبت رأسى ازاءهم •

وعندما جـاء عبد العاطى لزيـارتى فى تلك الليـلة ، بعد محادثتى التليفونية البلهاء مع ذلك الصديق ، انتابنى غيظ منه • لكنه لم يكن غيظى القديم • كان غيظا جديدا أثاره فى نفسى ما وجدته فيه من اعتداد جديد بالنفس وقد جلس واضعا ساقا على ساق قائـلا لى بغير عرق أو رعشة أو لون رمادى يجعل بشرته كبشرة غريق :

ـ قلت لك انه لا فائدة من كل هذا !

قلت مغالبا غيظى :

ـ قلت لى انه لا فائدة من أى شيء ؟

تشاغل بالنظر الى أظافره • ابن الحرام يعنى الآن بجمال أظافره ! فى الواقع ، تغير • تحسنت أحواله كثيرا خلال الأسابيع التى غاب فيها عنى • قال معاتبا ، بصوت مهذب جديد منه على سمعى ، زادنى غيظا :

ـ لم أكن أتوقع منك افتراء وضيعا لهذا! • أنا أحاول أن أبتز منك نقودا ؟ ومع ذلك ، ما الذى فعله لك حسان بك ؟ أمر برفع التليفون من غرفتك • صدقنى • سترفعه ادارة المستشفى صباحا •

لم يدهشنى انه علم بأمر الحديث الذى دار بينى وبين صديقى المزعوم منذ ساعات قليلة على التليفون فقد تصورت انه مازال متصلا بأصحابه الذين يتحولون الى ثعابين وضفادع وأشياء كهذه ، والذين تبين لى أنهم يعرفون كل صغيرة وكبيرة عنى • كان تصورى ، فى مبدأ الأمر ، ان لهم عيونا من الأطباء والممرضات كلفوهم بمراقبتى والتسمع على أحاديثى ، دون أن أدرى ، فى حقيقة الأمر ، أى شىء يمكن أن يدفع أحدا الى تكبد مثل ذلك العناء • اللهم الا اذا كان ذلك بغرض تحطيم مقاومتى• فقد كانوا ، كلما جاءوا بعد انتصاف الليل ، يعيدون على سمعى ـ برتابة من يقدم تقريرا ـ كل كلمة قلتها أو قيلت لى طول اليوم ، يصفون كل زائر ، ويحاكون كل ما قيل ، بطريقتهم

الخائبة الشائهــة التى أضحكتنى منهم ، فى بادىء الأمر ، ثم اجتذبتنى اليهم ، جعلتنى أفطن الى انهم ــ رغم كل ما يعتقدوه فى أنفســهم من براعة واقتدار لم يكونوا بكل ذلك القدر من الشيطنة ــ باستثناء تلك الفتاة طبعا .

فى الأيام الأولى التى خضت فيها حروبى المقدسة ضدهم ، وضد كل من حولى ، عندما كانت البنت تزورنى ، قالت لى ، دون سابق انذار :

ــ رجــل فى مثل سنك . بك محترم مثلك له مكانته . يفعل هذه الأشياء ؟

قلت ذلك بصوت زوجتى ، ووجه صارم جامد كاره لا رحمة فيه ، بدا لى ــ لمدى لحظة ــ كما لو كان وجه زوجتى حقا . ثم أطل الوجه الحلو الذى لا أمان له ، الذى يمكن أن يتحول بغتة الى وجه أفعى أو وجه ذئبة . ومن فمه ، كرنين أجراس من الفضة ، انطلقت ضحكة زراية . قلت لها :

ــ لا تفعلى ذلك ثانية ، أبدا .

قالت وهى تتأملنى بعينين ظللت ــ منذ أن التقيتهــا فى المصعد لأول مرة ــ مسحورا بلونهما عديم الثبات دائم التحول :

ــ أفعل أى شىء ؟ أذلك بصوت زوجتك ، ووجهها الصارم الكاره الذى لا رحمة فيه ؟

قلت :

ـ ما هى تلك الأشياء التى أغاظتك ؟

نظرت الى ثم قالت محاكية بعض معابثاتى للممرضات :

ـ حتى ذوقــك فى الغزل مقزز • حتى تصــورك للمتعة محزن • ماذا تريد أن تقول بحركات سخيفة كهذه ؟

لم أدر بماذا أجيبها • وعادت هى فقالت بعد لحظة :

ـ لكنك معذور • مازلت مردوما تحت الأنقاض • ثم ان أول تجربة لك كانت مع تلك الخادم كريهة الرائحة •

لم أقل شيئا • ولم أعجب أو أتساءل كيف عرفت ما دار ذات يوم ـ منذ قرون طويلة مضت ـ بينى وبين بنت فلاحــة كانت تعمل فى بيت أهلى ، وأنــا بعد صبى ملىء الوجه بالبثور بالصف الثالث فى المدرسة الثانوية • فوق أنى لم آكن فى حــال تسمح بالتفكير أو التساؤل • كانت الغرفة قد تحولت ثانيــة ، الى دوامة بؤرتها ، عين الاعصار فيها ، عينان كان لونهما فى تلك المرة لون زمرد تراقصت فى أعماقه آلسنة ذهبية من لهب • وعندما فارقنى الدوار ، نظرت حولى ، فلم أجد لها أثرا ، ووجــدت عبد العاطى مكانها ، واقفا ينظر الى وملء عينيه عجب ، فقلت لــه :

ـ أين ذهبت هذه الشيطانة ؟

فلم يجبنى بشىء . ظل واقفا ينظر الى ، فاغر الفم ، ولا يقول شيئا .

غير أن ذلك كله من أحداث عصور بعيدة انقضت ، وجليسى لم يعد ذلك الشخص المبتل المتصبب عرقا ، مغضن الثياب ، الفاغر فمه ، جليسى شخص جديد ، مرتاح راسخ فى مقعده ، يتأمل أظافره . فلما انتهى من تأملها ، قال وهو يتفحصنى .

ـ بدأت تصبح مشكلة . لهم ، ولنفسك ، وللجميع .

قلت بسرور حقيقى .

ـ عظيم .

قال وشىء كالعطف فى صوته :

ـ ماذا جرى لك . لم تعد ...

لم أدعه يتم قوله ، قلت مبتسما ابتسامة تملأ وجهى أسنانا تعلمتها وأنا راقد على ظهرى ، بعد مران استعنت فيه بمرآة صغيرة اختلستها من جيب احدى المرضات .

ـ لم أعد رجلا محترما . لم أعد عمودا من أعمدة

المجتمع . لم أعد سيدا عاقلا مهندما . لم يعد هناك ما اقيم له وزنا . والفضل لكم .

قال والعطف يتحول الى شيء كالرثاء .

ـ لهم . لهم . لا دخل لى فى كل هذا الآن .

قلت :

ـ كيف ، لهم ؟ انسلخت عنهم ؟ نفضـوا أيديهم منك ؟ لم يعودوا يلاحقونك محاولين أن يزاحموك خارجا وداخلا ؟

قال محاولا أن يتصنع الود :

ـ دعنا منى أنا . ولنتحدث عنك .

نظرت اليه بارتياب . قلت :

ـ كيف عرفت اذن بأمر محـادثتى التليفونيـة مع ذلك المـأفون حسان ؟

نظر الى لحظة ثم عاد الى تأمل أظافره . وقال :

ـ كنت معه وأنت تقول له يجب أن ترى وجهـه وهـو يستمع اليك !

سكت ، وقد باغتنى قوله . وسكت هو لحظة ، ثم قال :

ـ لقد جئت من تلقـاء نفسى . لم يكلفنى أحد بالمجىء

اليك . ماذا جرى لك ؟ كأنك تريد أن تهدم العـالم كله على رأسـك .

نظرت اليه وضحكت . قلت :

ـ أراك تعنى كثيرا بمظهرك وثيابك هذه الأيام .

رمقنى بنظرة سريعة ويداه تتحسسان بغير وعى ، قمـاش بذلته الأنيقـة . وكأنه يخشى أن يخلعها أحد عن جسـده . قـلت :

ـ رشحت حقيقة لمنصب هام ؟

اضطرب بشكل اثار عجبى . لا أدرى ما الذى أرعبه فى سؤالى . تفصد جبينه بقطرات عرق ، واعترته رجفة . قال باسطا يديه أمامه كمن يدفع شيئا غير مرئى :

ـ كلا ، كلا ، كلا . لست ممن يخاف منهم أحد . أنـا مسالم تماما . لا أريد الا العيش فى سلام .

وجدت فى اضطرابه راحة غريبة . شعرت بشىء كالسعادة وأنا أرى وجهه يمتقع وأرى عينيه تغيمان وكأنه يسبل جفنين داخليين . قلت ، محاولا ألا اضحك :

ـ وحتى هـذا لا داعى اليه . أنت تفهم . أنا لست ناقما عليك . لست ناقما على أحد .

هم واقفا ، فاتجه الى الباب • قلت :

ـ ماذا ؟ لن تستخدم النافذة ؟

التفت الى ونظرة كراهية ملتاثة تفلت من داخله ، وترددت لحظـــة • لكنى لم أستطع أن أكف نفسى عن السؤال :

ـ تلك البنت ذات الشعر الجهنمى ، وكلبها القبيح • ماذا حدث لهما ؟ لم أرهما منذ وقت طويل •

انطفأت الكراهية فى نظرته ، وابتسم • تأملنى ، شامتا ، لمدى لحظة • ثم قال :

ـ لقد جننت ، ما فى ذلك ريب • جننت تماما •

٤

مهــا تــذهب

بدا ، فى تلك الأيام الأخيرة ، كما لو كنت جننت حقا . ولقد راودنى شك قوى فى أن ذلك حدث لى فعلا . لكنى لم أنزعج أو أحزن . عندما قال لى عبد العاطى انى لابد قد جننت ، ضحكت بجذل كان قد بات لا يفارقنى . كنت ، فى تلك الأيام أحس احساس الاعصــار . اعصار حقيقى بوسعه أن يقتلع كل ما فى طريقه ، خارجا وداخلا ، ويكنسه أمامه . وكان منشأ ذلك الاحساس أنى وقعت على سر . سر بسيط للغاية ، بالغ السخف اكتشفته خــلال تلك الدهور التى انقضت وأنا ممدد على ظهرى آخذا فى النمو كالنبات ، ولاشك أنى لم أكتشفه لنفسى قبل ذلك لفرط سخفه وبساطته . لكنى ، عندما وقفت عليه ، وجدت ان كل الأشياء أخذت تحدث فى وقت واحد ، وكأنها ظلت واقفــة بباب ما غير مرئى منتظرة تلك اللحظة لتحدث لى وللآخرين معى . بدأ حدوثها على مهل ، صغيرا ، محدودا ، مترددا ، وكأنه الخطى الأولى لطفل يتعلم المشى ويخشى ــ بخوف غريزى غير متعقل

ـ أن يقع فى الخطوة التالية ، فيدمى أنفه . أشياء لا كبير خطر أو مؤدى لها . كتلك الفضيحة العائلية الهزيلة التى سـودت بها عيش أختى الكبرى . وزلزال الميراث الذى أوشكت أن أجهز به على زوجتى . وعبثى الصبيانى مع الممرضات . وذلك السباب الذى بات ينساب من فمى كماء عكر يتدفق من ميزاب . كنت ، بكل تلك الأشياء الصغيرة ، أجرب عضـلاتى وأختبر قدراتى . ثم ، وقد ظل أنفى سليما فى وجهى ، ازددت جرأة وانصرفت عن تلك الصغائر الى ما هو أجل وأخطر ، وأكثر اثـارة للمتعة ، عاقدا العزم على الدخول مع الكل فى معركة زبون . ولمـا كان الأقربون أولى بالمعروف ، فانى بدأت بالدائرة الحكومية التى كنت أعمل مديرا فخيما بها فيما مضى ، وبحجـة الدفـاع عن النفس ، والتمسـك بمنصب لم أكن على استعداد للعودة اليه حتى وان أغرونى بمائة بنت جهنمية الشعر ، أشعلت فى الدائرة ، وحولها وتحتها ، وفوقها ، حريقا حقيقيا من فضائح ومخـاز تجاوزت كل حدود المعقول المقبول فى أى دفاع مشروع أو غير مشروع عن النفس . كنت كمن عقـد العزم على شـفط كل العفونات . والأكاذيب ، والجرائم الخسيسة ، من الأركان ، والجحور ، والآبار ، والشـقوق التى ركدت فيهـا وأسنت ، وضخها فى وجوه الجميع ، وأعينهم ، وأفواههم .

وكما كان متوقعا ، أفقدنى ذلك عطف أشد الناس تسامحا

وفهما ، وتركنى فى عراء مترام بغير صـــديق واحد مزعوم من كل أولئك الناس الذين تراءوا لى كما لو كانوا ظلالا اعترضت طريقها فى حياة سابقة •

ولمـا أيقنت أن الحريق الذى أشعلته بتلك الدائـرة لن ينطفىء قبل أن يأتى على كثيرين ، نفضت يدى منها ، وقد انتابنى ضجر ، وقررت أن أنصرف الى هجمة جديدة ، فبدأت أجمع فى يدى خيوط حلقة الرذيلة ، والسرقة ، والابتزاز ، والســوق السوداء فى الأدوية ، والقتل ، والاتجار فى الجثث ، التى كانت رائجـة فى المستشفى المؤمم الذى عولجت فيه • انفقت نقودا كثيرة ، وسخرت خبراتى الادارية المعطلة فى زيادة انتاجية الحلقة وكفاءة الأداء بهــا • ولم ينقض وقت طويل قبل أن يفطن كل المشتركين فى نشاطات تلك الحلقة من أطباء واداريين ، وممرضات، وتلميذات تمريض ، وأقرباء لبعض المرضى من ميسورى الحال ، وبعض المرضى أنفسهم ، بأن مستوى الخدمة بات أرقى ، وأكثر تنوعا ، والربحيــة باتت أعظم ، فأســلمونى رقابهم ، ومقود حلقتهم ، تاركين لى تحريك خيوطهــا من فراشى ، وكأن ذلك الفراش قد تحول الى لوحة أزرار تتحرك فوقها أصابعى ، فتضىء مصابيح حمراء فى هــذه الغرفة أو تلك ، وتحدث أشــياء يندى لها الجبين ، وأشياء أخرى يقشعر لها البدن •

لكن النجاح لم يصعد الى رأسى • لم أخدع نفسى • لم

أحاول أن أصدق أنه كان بالوسع أن تستمر الأشياء على تلك الوتيرة طويلا • فقد أشعلت حولى من الحرائق ، عمدا ، أكثر مما ينبغى • بذلت ، فى الحقيقة ، كل ما وسعنى من جهد ـ كما قال عبد العاطى فى آخر زيارة من زياراته ـ لأهدم العالم على رأسى وأؤلب الجميع ضدى • وعندما بدأت الجدران تتصدع ، والسقف والأعمدة تتشقق وتتساقط ، ملأتنى غبطة لا حدود لها •

وكما توقعت تماما ، جاءت زوجتى فى مقدمة الصفوف • ظهرت فى الغرفة فجأة مرتدية ثيابا كحلية بدت لها ـ بغير شك ـ ملائمة ، باعتبارها أقرب ما يمكن الى مقتضيات الحداد، وقبعة سوداء جنائزية عريضة الحافة ، بغير زهور أو ثمار كرز صناعية ، ونقابا أسود كالذى ترتديه الأرامل فى المقابر ، لحظة مواراة الفقيد ، بأفلام السينما الأمريكية • لم أكن قد رأيتها منذ أكثر من شهر • هممت جالسا فى الفراش • ونظرت اليها باعجاب حقيقى ، وتلك الابتسامة تشق وجهى من الأذن الى الأذن • قلت :

ـ يالله ! انك تبدين كالموت ذاته !

نظرت الى دون أن تقول شيئا ، زوجتى امرأة قوية الشكيمة، لا تقتلعها أعتى الأعاصير ، راسخة حيث هى • وقفت على مقربة من الباب ، فلم تتقدم داخل الغرفة أو تبد رغبة فى الجلوس الى

ومحادثتى جاءت لتقول ما عندها وتذهب • ولم تطل فى الكلام • قالت ان أحدا لم يعد يعجب لشىء مما بت أفعل ، بعد أن عرف الجميع أنى ، تتيجة للادمان والانحلال ، جننت • الا أن الفضيحة الأخيرة التى فجرتها حول المستشفى الذى آوانى وأنقذ حياتى ، وتسببت من جرائها فى اصابة مدير المستشفى المسكين ، وهو رجل فاضل ، ورب أسرة ، بذبحة ، واستقالة عدد من الأطباء ، وطرد احدى السسترات ، كانت القشة التى كسرت ظهر الجمل •

قـلت :

ـ البعير •

قالت بترفع :

ـ ارجوك لا داعى للبذاءة •

قـلت :

ـ ليس فى الأمر بذاءة • القشة التى قصمت ظهر البعير •

فلم تعرنى اهتماما ، واستطردت قائلة ان كل تلك الأشياء اقنعت الجميع بأنى فقدت كل احترام لنفسى وللآخرين • فهززت رأسى بقوة مؤمنا على قولها ، لكنها لم تعرنى اهتماما • قالت ان الكثيرين ، ومنهم ادارة المستشفى ، احتملوا منى الكثير ، وتسامحوا ، وتغاضوا ، أخذين فى الاعتبار مكانتى السابقة واسم أسرتى الذى جعلته أنا مضغة فى الأفواه • لكن الموقف

تغير الآن تماما ، بعد كل هـذه النصائح والمشاغبات • فوق أنى شفيت تقريبا من معظم الكسور التى أصبت بها يوم قفزت من ذلك التاكسى وأنـا تحت تأثير المخـدرات ، ومن سـائر التشوهات التى حدثت لى ، ولم يعد هنـاك ما يبرر الاستمرار فى تحمل النفقات الباهظة التى تتكلفها اقامتى فى هـذه الغرفة ، خاصـة وانهم سيرفعون الضـمادات عن رأسى ونصف وجهى غـدا •

تفكرت فى كل ما قالته ، ثم قلت لها :

ــ لكنى أحب هذه الغرفة •

قالت وصوتها منبىء عن انها قد زمت شفتيها بصرامة تحت نقابها الأسود •

ــ هذا مستشفى ، وليس ••• بيتا سيىء السمعة •

ابتسمت لها ، وقلت :

ــ ماخور • لم لا تسمى الأشياء بأسمائها أبدا ؟ وعلى أى حال ، النقود نقودى ، افعل بها ما أشاء •

قالت وصرامة شفتيها المزمومتين تحت النقاب تشتد :

ــ وابنتك • لم تفكر فى ابنتك ؟

نظرت اليها • اقتربنـا من أرض خطرة تواجهنى عليهـا بأسلحة لا قبل لى بها • قلت :

ـ مالها ابنتى ؟ لديها من مالها الخاص ما يكفيها وأكثر • وأنت أيضا •

قــالت :

ـ لا شأن لك بى •

قلت متلمسا طريقى بحذر :

ـ وعلى أى حــال • أين هى ابنتى ؟ لم أرها منذ وقت طويل •

لم تجب • قلت :

ـ من حقك أنت طبعــا أن تنسى وجــودى وتكفى عن زيارتى • لكن ليس من حقك أن تمنعى مها من المجىء الى •

قــالت :

ـ لا تتكلم عن الحقوق • أنت الذى تنازلت عن كل الحقوق • مهــا تزوجت ، وسافرت الى الخــارج ، لتبتعد عن فضائحك •

لم أعلق على قولها بشىء • ولم يفصح وجهى عما حدث بداخلى • كنت أعلم انها ترقب ملامحى كحــدأة جائعة ترقب جرذا • قالت :

ـ ماذا كنت تتوقع ؟ يضيع مستقبلها هى الأخرى بسببك ؟

تمزقت أشياء فى داخلى . هذا الفراق الأخير . لم يعد هناك أحد . أحسست ـ رغم الحزن ـ أنى أتنفس فى داخلى ، بعمق . لم يعد هناك ما يستبقينى . قلت للمرأة :

ـ زوجتها من ؟

رفعت نقابها ، ولأول مرة منذ دخلت الغرفة ، ابتسمت . قالت :

ـ ذلك الولد الوسيم ، اسامة ، ابن أخت عواد بك زوج أختك .

لكنى لم أدعها ترى شيئا على وجهى . قلت :

ـ يقولون انك تقضين معظم وقتك الآن فى صحبة عبد العاطى بك .

نظرت الى بلؤم ، وأسبلت جفنين داخلين ، ثم أرخت نقابها ، فلم تعد الكراهية نظرة مرتسمة على وجهها ، بل شحنة كهربائية توتر بها جو الغرفة كله . أولتنى ظهرها ، ثم قالت وهى تفتح الباب لتخرج :

ـ لم يخبرك أحد حتى الآن طبعا بما حدث لعينك اليمنى .

فى اليوم التالى ، فكوا ضماداتى . بات منظرى قبيحا بحق . لم أكن فى يوم من الأيام جميلا بأى معيار . رأسى الصلعاء ، وتنوءات العظام التى فيها . ووجهى الشبيه بوجوه ملاكمى الدرجة الثالثة الذين يتعيشون من وراء لكمات الآخرين . وأنفى المفلطح ، الذى بات الآن مكسورا أيضا . وفوق كل ذلك ، فقدت عينى اليمنى . وتتيجة لما اصبت من كسور ، سأظل أسير ، بقية حياتى ، وكأنى مصارع مخمور خارج من الحلبة لتوه وقد طاش صوابه اثر ضربة قاضية تحت الحزام .

لكنى لم أشعر بفجيعة . على العكس ، ضحكت وأنا أتأمل هيئتى فى المرآة . شعرت بجذل غريب وأنا أكتشف وجهى الجديد . تأملت ملامحى المنفرة باعجاب ، محركا رأسى ، لأراها من كافة الزوايا .

تناولت طعام الافطار فى صباح ذلك اليوم الأخير بالمستشفى ، بشهية فائقة . كان شعورى مزيجا غريبا من شعور المفرج عنه لتوه ، لحظة أن تقفل وراءه أبواب الليمان ، وشعور المريض الذى يصحو من غيبوبة طويلة فيخبرونه انه سيعيش . وتساءلت وأنا ألوك طعامى ملتذا ، لم لم يحدث كل ذلك لى قبلا . متى قبلا ؟ قبل أن أصبح رجلا محترما له مكانته ، كما كانت تقول زوجتى قديما ؟ قبل أن تصبح تلك

المرأة زوجا لى ؟ قبل أن أدخل الجامعة ؟ قبل أن أولد ؟ لابد انه كانت هناك ، فى كل تلك السنين التى انقضت ، لحظة ما حرجة ، فسدت عندها الأشـياء . تلك هى اللحظـة التى كان يجمل بما حدث لى فى هـذه الشهور الأخيرة ، أن يحدث لى عندها ، أو قبلها أو بعدها بقليل . ليس من العدل أن نترك هكذا ، كحقائب نسيها أصحابها ، فى مطار ، أو محطة للسكك الحديدية، ليتراكم فوقها التراب ، فى مخزن معتم . من يدرى بم تشـعر الحقيبة من تلك الحقائب المتروكة وهى متخمة بالثياب والأحذية القديمة ؟ بالغيظ ربما ؟ كلا ، هـذا غير حقيقى . لم أكن ـ الى أن أدخلتنى مخالطتى لعبد العاطى من ذلك الباب الخطر ـ أشعر بالغيظ من شىء أو من أحد . كنت رائقا هادئا كسطح بركة . وفى القاع ، ماذا كان ؟ طين ممخط تفرزه حـلازين وأفـاع ؟ وطحالب . والآن ؟ ماذا هنـاك فى القاع ؟ هـل ذاب الطين ، واختفت الحلازين والأفاعى ؟

مازال الخـوف يجسنى بيـده . فى لحظـات ، تتحلقنى الوحدة ، ويملؤنى رعب غير متعقل . مما أخاف ؟ ممن أخاف ؟ لا أحد يقول . لا يوجد من يسأل أو من يجيب . موكولا الى أمرى . متروكا هنا وحدى ، كمتاع تخلى عنه من اقتناه . وفى لحظات أنتشى بجذل لا يعرف الحد . كالفرحـة التى عرفتهـا الأرض يوم طلعت الشمس فوقها لأول مرة ، فى بداية الأمر كله .

يوم ذاقت طعم الدفء ، ودار رأسها بجنون العاصفة وأسلمت جسدها ــ الذى كان فى ذلك اليوم بكرا ــ لنشوة الاعصار •

انتفضت واقفا كمن مسه تيار صـــاعق ، وكأنى اكتشفت لنفسى سر نبع الفرح ذاته ، فقلبت المنضـــدة الصغيرة التى وضعت فوقها صحاف الطعام ، وسقط كل شىء على الأرض بصـــوت تهشم ، وصوت زجـــاج يتكسر ، وأصـــوات ملاعق وشـــوك وسكاكين وأكواب ، وصوت ضحك وصراخ ، وعندما انفتح الباب ودخلت الممرضـــة ، وقفت فاغرة الفم ترقبنى دائـــرا فى الغرفة ، أرقص ، مطوحا ثيابى فى كل اتجاه ، متحررا من عكازى، متحاملا بغير عون على ساقى المكسورة ، منشـــدا من قلب ملأته بهجة كلمات أنشودة صغيرة ملتاثة لم أكن أدرى من الذى أجراها على لسانى ، وعلمنى لحنها ، ولم أفقه لها معنى •

البـاب الأخـير

لكن الجذل فارقنى ، عند مقدم الليـل ، وتخلى عنى • تبخرت البهجة • جلست على حافة الفراش وحدى ، ناظرا الى النافذة اللعينة • لم يكن قد عاد لدى ما أفعله ، بعد أن ذهب الجميع ، الا النظر الى تلك النافذة •

انتظرت طويلا ، ولم يأت أحـد • قمت متحامـلا على عكازى ، ذاهبا اليها ، وكأنى أخطو الى حافة هاوية مفضية الى قاع العالم ـ من وقت طويل ، تعطلت تلك النافذة • خمدت • انطفأت • ويوما بعد يوم تحولت الى مجرد شـكل هنـدسى مفرغ ، بالغ السخف ، بغير مؤدى ، وضع لسبب غير مفهوم فى مسطح هندسى مسدود ، لا يقل مجانية وسخفا •

ومع ذلك ، ظللت أنظر اليهـا ، ولا أجرؤ على الاقتراب منها • ما الذى كان يرعبنى ؟ ما الذى كان يشدنى اليها ؟ ما الذى كنت أتوق اليه وانتظره منها ؟ نافذة لا شىء وراءها الا فراغ

تحته تكوينات شائهة من ابنية قبيحة ، عديمة المعنى ، وخرائب مسورة ، ومخلوقات تبدو من ذلك الارتفاع ضئيلة رائحة آتية وكأنها تقوم ببروفة لا تتوقف للسير على حبال سيرك لم يأت بعد ، والرقص فى حلبته . لكنى لم أجرؤ على الاقتراب .

غير أن تلك كانت ليلتى الأخيرة فى الغرفة التى احتوتنى ، عندما حملت اليها ، كحفرة قبر متسع ، ثم باتت ، طوال شهور بأكملها ، رحما . وقفت على بعد خطوات من النافذة ، متوكئا على عكازى ، غير قادر على العودة الى الفراش لأنام أو أجلس ، وغير قادر على الاقتراب بأكثر مما فعلت . سرت فى جسدى رعشة ، وتصببت عرقا . صعدت الى خياشيمى من جسدى تلك الرائحة البذيئة التى نفرتنى من عبد العاطى يوم شدنى الى نافذة مكتبى نيرينى فى الشارع امرأة تلد ثعبانا . ومن عظم شوقى أخذت أعب من تلك الرائحة ملء صدرى . انتشت بها رأسى . وجدتنى ،د ون أن أدرى كيف بلغت النافذة ، مستندا الى اطارها ، محملقا فى الليل الذى واجهنى بظلمة مصمتة مسدودة لا انجم ولا بصيص فوقها . ونظرت الى المدينة تحتى ، باحثا عن المدينة ، غير واجد لها أثرا .

اجتاحنى رعب غير متعقل دفعنى الى الحافة الخارجية . استوعبتنى الظلمة السوداء المزغبة وكأن يدا رفعتنى وقذفتنى فتلقفتنى طيات ذلك المخمل الحالك ، وأنا كغريق أضرب بذراعين

تسربت منهما الحركة ، محاولا الطفو الى السطح لالتقط أنفاسى، محاولا أن أصرخ مستنجدا ، فتتكاثف الطيات الناعمة السوداء أكثر ، وتشدني كدوامة • وفى الظلمة أصوات كثيرة ظلت تمر قربى ، فتمسح سمعى بذكريات وجوه وعيون وأشياء بادت • لابد ان هذا هو الموت •

استسلمت للظلمة ، فتسرب الخوف منى • احتوتنى سكينة لم أذق لها مثيلا فى حياتى • وتحددت الأصوات الطافية حولى أكثر • واقترب وجه مها الحلو منى ، وفى العينين حزن وعتب اعتصر قلبى • ثم غاب الوجه الحبيب • وابتلعته الظلمة ، وقذفت فى وجهى وجه زوجتى ، بأعين كارهة ، وشفاه تتحرك بغير انقطاع ، دون أن يخرج من الفم صوت •

عدت الى نفسى ، واقفا بجوار النافذة ، وعادت الغرفة فانتصبت جدرانها حولى • ومن رحلتى فى قلب الظلمة ، عدت بمذاق وحدة ، تسرب داخلا ، فمسنى بصقيع • لم يعد مكان آوى اليه • لم يعد يريدنى أحد ، ولكن ، أليس ذلك ما أردته ؟ ففيم حزنى ؟ أردت الهرب من كل الأمكنة ، وأدرت للكل ظهرى • ففيم رعبى من العراء والوحدة ؟ تصورت العودة الى العمل ، مرؤوسا لعبد العاطى ، ربما ، أو شخص آخر مثله • تصورت العودة الى البيت ، تحت جناح زوجتى • قد تقبلنى المرأة ، فتحبسنى فى غرفة داخلية ، لتجرنى وراءها الى المحكمة ، مرة

كل بضع جلسات ، لأدلى بما تلقننى اياه بالليل من شــهادة فى قضية الميراث التى ذهبت فرفعتها على اخوتى ، باسمى ، بعد أن اقنعت الكل بأنى بت فاقد الأهلية ، واستصدرت قرارا بفرض الحجر على . وقد لا تقبلنى ، فترشو ذلك البواب الجلف ببعض نقودى التى جردتنى منها ، ليضربنى ، ويلقى بى خارجا .

وثب قلبى فجــأة فى صدرى ، وضاعت منه دقة أو دقتان . سمعت صوتا ورائى يقول :

ــ هــذا ما يجب أن تفعله المرأة بك . ستعيش وتموت مرتعبا .

درت على عقبى ، بغير عكازين ، فانحططت أرضــا على مؤخرتى ، تحت النافذة ، محملقا اليها كالابله . تأملتنى لحظة ، ثم قالت :

ــ شكلك قبيح بحق . لم أكن أتصور انك بهذا القبح .

ضحكت فرحا كطفل . قلت :

ــ كنت انتظرك . ما الذى اخرك هكذا ؟

ظهرت فى الغرفة بالهيئة نفسها التى طلعت لى بها فى المصعد، يوم التقيتها لأول مرة ، حاملة كلبهــا الأســود ، وقد جمعت شعرها الجهنمى فى ذيل حصان على ظهرها ، كابنة سبعة عشر .

لكنها لم تخدعنى • كانت قادرة على أن تتحول فى لحظة الى ساحرة عجوز مغضنة الوجه •

قالت :

ـ أتنوى أن تظل جالسا على الأرض ؟

أشرت لها على عكازى اللذين سقطا بعيدا عن متناول يدى عندما باغتنى صوتها من وراء فاستدرت لأراها • لكنها ظلت حيث كانت ، ناظرة الى بعينين كاتتا ، فى تلك اللحظة ، زرقاوين مثلوجتين كمياه بحر من بحار الشمال ، وقالت بنفاد صبر :

ـ لا تتظاهر بانك مقعد • لا وقت لديك لمثل هذه الألاعيب • ستأتى زوجتك عما قليل •

تحاملت ، فقمت واقفا ، متساندا على افريز النافذة •

قالت :

ـ استصدر لها عبد العاطى بك قرارا بادخالك تلك المصحة العقلية التى طالما حدثوك عنها • مصحة حكومية يبعثون اليها بأمثالك ليثوبوا الى رشدهم • ليست فيها غرف خاصة أو ممرضات تلعب معهن ألاعيبك الصبيانية •

انحنت على كلبها ، فأخذت تحك أنفها الجميل بأنفه الأسود المخطط • قلت لها :

ــ ليتك تكفين عن هذه العادة القبيحة •

ضحكت وقالت :

ــ أتغادر منه ؟ أنفه ليس ممخطا • انه أجمل منك بكثير •

ضحكت ، وقد عاد ذلك الجذل الملتاث يترع قلبي ويفيض منه كرحيق كرم ينسكب من راقود مسحور • أفقدني الفرح صوابي ، فنظرت الى عينيها بملء عيني • ودارت بي الغرفة • قلت لها بنصف عقل :

ــ لعلك تحبين المسوخ والحيوانات الضالة ؟

رمقتني بنظرة سريعة ، ثم قالت ، متجاهلة سؤالي الملتاث :

ــ أتنوي أن تتحرك • أم ستبقى هنا بانتظارهما ؟

قلت :

ــ لم يعد لي مكان أذهب اليه •

قالت :

ــ مازال الباب مفتوحا أمامك •

نظرت اليها ، وقلت :

ــ لآتي اليك ؟ أنت لا أمان لك • قد أفتح عيني ، ذات مرة ، فاذا بك تلدين ثعابين وأفاعي •

وميض قطبى خطف فى الزرقة الثلجية • قالت :

ــ لتأت الينا •

ضحكت ، مكابرا اليأس الذى ملأ صدرى • فيم كنت آمل ؟ أترانى جننت حقا ، جننت تماما ، كما قال لى عبد العاطى وهو ينصرف عنى لآخر مرة ؟ هل هــذا يحدث لى حقيقــة ؟ آتى اليهم ؟ الى من ؟ ولأى شىء ؟ لأفعل ماذا أو يحــدث لى ماذا ؟ قلت :

ــ كلا ، شكرا • ما الذى يمكنكم أن تفعلوه من أجلى ؟ لقد فعلتم ما فيه الكفاية • ثم انظرى الى صاحبى القديم ، الذى قادكم الى ، عبد العاطى ، وما حدث له •

قطبت حاجيها باستياء • قالت بنفور :

ــ عبد العاطى هــذا كان فاسدا منذ البداية • لا شأن لنا به •

قلت : متفكرا فى كل ما ترامى الى من أخباره :

ــ نعم • أدارت وعودهم رأسه • اقاموا عليه شعائرهم •

قالت بنفاد صبر :

ــ ما هذا الذى تهذى به ؟

قلت وأنا أناضل لأحتفظ بثباتى تحت وطــأة عينيها :

ـ لا شيء •

ضاقت العينان الزرقاوان • تأملتنى لحظـة ، ثم قالت :

ـ ظننتك تخليت عن الخوف •

أمعنت النظر فيهـا بدورى ، وضحكت • قلت ، بعـد صمت :

ـ ومن الأمل ، صدقينى • من الأمل أيضا •

تحركت ، فاقتربت منى ، عاودنى • عاودنى ذلك الدوار • تغير لون عينيها من جديد ، وغمغمت فى سمعى بأشياء لا تقال • نكنى أطبقت أسنانى ، وهززت رأسى • قلت :

ـ كلا ، كلا ، كلا • أشكرك ، كلا • لن تعطينى شيئا • لن تجعلينى شيئا • لا أريد شيئا من أحد • أريد فقط أن أكون أنـا •

رأيت تلك القشور الصدفية تأخذ فى التراكب وتنتشر على عنقها • لكنى لم أعد أهتم لتلك الحيلة كثيرا • قلت :

ـ مازلت مستعدا أن آتى اليكم • ولكن ليس للأسباب التى تتصورونها • وليس بشروطكم •

أشحت ، حتى لا أرى تحول وجهها الجميل • قلت :

ـ يجب أن تحاولى فهمى . لست ناكرا للجميل . لكنى أدرك الآن أنى ضيعت العمر فى غلطـة فظيعة . ولا أطيق أن أضيع القليل الذى بقى فى غلطة أفظع . لن يمتلكنى أحد ثانية .

قـالت :

ـ أتتصور أن ذلك مستطاع ؟ الند للند ؟ دائما ؟ طيلة الوقت ؟ أى عالم يكون ذلك ؟

رغم لسبعة الخوف التى لعقت أحشائى كلسان صغير من اللهب ، قلت ، متصنعا ثباتا لم أكن أحسه :

ـ ذلك متروك لكم . لن يسكننى أحد .

وهى تمر قربى ، ذاهبة الى النافذة ، كاد وجهها يلامس وجهى . لا أدرى ان كانت قد فعلت ذلك عن عمد . نظرت اليها برغمى ، رغم الخـوف ، قد أستطيع أن آلفه ، هـذا الوجه . لفحتنى أنفاسها ، جافة ، حارة ، فيها ذلك العبق الغريب . قلت لنفسى : وحتى هـذا ، يمكن أن آلفه . ثم تنبهت الى ما قلت . فانتابنى غيظ . لمـاذا ؟ كأن شيئا من كل ما حدث لى لم يحدث . لمـاذا آلفـه ؟ لمـاذا يجب أن آلفه ؟ لمـاذا يجب أن تبيت معروفـة ومكرورة . لم يجب أن يظل العالم عاقلا وممتثلا لخوفى ؟ لم يرعبنى من الأشـياء ان تكون جديدة ، فى كل مرة ، غريبـة وعصية على الاعتياد ؟ أترانى لم أحلم الا بأن أعيد الكرة ؟

ضحكت ، وقالت :

ـ لست طليقا كما تتوهم • مازلت مرتعبا •

ثم ضربت الأرض بقدمها ، نافدة الصبر • قالت ، وهى تخطو خارجة من النافذة :

ـ هل ستأتى أم لا ؟

نظرت الى المدينة تحتى ، فرأيتها فاغرة كفوهة فرن محمى • مسنى الخوف بصقيع ، فتسربت كل قدرة على الحركة من جسدى • لكن شوقا بغير حدود ظل يشدنى اليها • وصوت صاحبى القديم يأتينى من ذلك اليوم البعيد ، مرددا برتابة خامدة كهمهمة الكابوس : ابتعد عن هذه النافذة ابتعد • ستجعلك تقفز •

ونظرت اليها ، فى الظلمة الخارجية ، مستغيثا بها • لكنها قالت وهى تبتعد :

ـ لن تعرف حتى تقفز •

مشـكلة الكابـوس

(١)

هذه المصارحات لا لزوم لها فيما أعتقد ، ولا فائدة منها ٠ وكل ما قد يعود على من مثل هـذه الفضفضة أن يلوى لى أحد وجهه ، أو يتلاعب بملامح ذلك الوجه ، أو ينهنه ضاحكا ، وربما ذهب فتكلم من ورائى أيضا متظـاهرا بالأسف من أجلى وهو ينقر بسبابته على الجزء الأعلى من صدغه ٠

وهذه كلها ألاعيب أعرفها جيدا وأستخدمها أنا أيضا ، ولذلك فانه من رجاحة العقل ألا أقول أو أفعل ما يتيح لأحد أن يتظاهر بأنه حزين لأجلى ٠

لكنى أجدنى مضطرا الى هذا الذى سأفعله الآن ٠ فأنـا واقع فى مشكلة ، وقد فشلت حتى الآن فى العثور على ما يمكن أن يكون حلا لها ٠ وبطبيعة الحـال ، لم يخطر لى أن أكتب الى باب مشاكل القراء فى مجلة أو أخرى ، لأن هـذا لا جدوى منه الاتاحة الفرصـة لشخص لا يجد ما يكتبه أن يأكل عيشا من

وراء مشـــكلتى ولا يفعل شـــيئا من أجلى • وعندما صارحت عباس علوانى ، وهو شخص أعرفه منذ كنا فى المدرسة الابتدائية معا ، بهذه المشـكلة ، قعد يضحك ، ثم نصحنى بأن أذهب الى مستشفى المعادى • فلما قلت له ممتعضـــا انى لست مريضـــا ، وسألته ما الذى تتصوره أنهم يمكن أن يفعلوه من أجلى فى مستشفى المعادى ، أكد لى أنى لست أحسن من القذافى ، وقال انهم كانوا يعالجونه هناك • فقلت له طيب طيب ، انس أنى قلت لك شيئا • ولم يعجبه كلامى ، بطبيعة الحـــال ، فلوى وجهه وذهب مستاء • وعندما حكيت لعفاف زوجتى ، قالت انى أستأهل هـــذا وأكثر منه ، وذكرتنى بأنها حذرتنى دائما من عبـــاس علوانى هـــذا ونصحتنى بألا أطلعه على أسرارى ، وقالت انها لا تستبعد أنه يقعد الآن على القهوة ويحكى لكل من هب ودب ما حكيتـــه له ، ويضيف اليه حواشى من عنده ، ويتظاهر بخفة الدم • ورغم أن نفس ذلك الخاطر كان قد مر بذهنى ، وندمت على مصارحتى لعباس بهذه المشـــكلة ، فقد قلت لزوجتى انها سيئة الظن ، وتظاهرت بأنى لايمكن أن أعتقد أن صديقى الذى عرفته منذ الطفولة يمكن أن يفعل شيئا كهذا مما يسىء الى سمعتى • ولم يعجبها كلامى بطبيعة الحال ، فمصمصت بشفتيها ، ثم قالت انها لا تستطيع أن تفهم هـــذا الهياج الذى انتابنى • فقلت ممتعضا : أى هيـــاج ؟ فقالت اهىء • هـــذا الذى أنت فيه • فرغم أن

زوجتى من أسرة طيبة وتحمل شـهادة الابتدائية من مدرسـة فرنسية ، ظلت فيها هـذه الخصلة السيئة : عندما لا يروقها كلام من تتحدث معه ، تتقصع وتخرج هـذه الأصـوات النسائيـة النابية . وأنها كلما فعلت ذلك معى أذكرها بأنها زوجة وأم وسيدة محترمة ولا يليق اطلاقا أن تخرج مثل هذه الأصوات . لكنى فى تلك المرة تظاهرت بأنى لم ألق بالا ، وسألتها : ما هو الذى أنا فيه ؟ فقالت : اسم الله . هل نسيت أنى أنام معك فى فراش واحد ؟ قلت : وما دخل ذلك فى الأمر ؟ قالت : يه ! ولم تزد ، فأولتنى ظهرها ، وذهبت الى المطبخ وهى تطوح ردفيها بحركة مبالغ فيها تعرف جيدا أنى لا أسيغها .

(٢)

رغم تظاهرى بأنى لم أفهم ، كنت مدركا تمـام الادراك لمـا أرادت عفاف عندما ذكرتنى بأنها تنام فى فراش واحد معى . كانت تتحدث عن الكابوس فهى التى كانت ـ قبل أن يتوقف ـ توقظنى منه كل ليلة ، وفى بعض الليالى مرتين ، عندما آخـذ فى الصياح أو الصراخ والتلوى والرفس فى الفراش ، فأصحو غارقا فى العرق ، وأنظر اليها بعينين زائغتين ، ثم ـ عندما تتحدد ملامحها ـ أتشبث بها وأضع ذراعى حول عنقها وكأنى أتوقع أن تحملنى فتخرجنى من ماء عميق ، فتهز رأسها آسفا لحـالى ،

وتمصمص بشفتيها ، وتغمغم بأشياء من قبيل « سبحان الله » و « اللهم حفظنا » ، وتقول شيئا عما قد يلغط به الجيران ، ثم ـ عندما أهم بأن أقص الكابوس عليها ـ تنظر الى باستغراب ، وتولينى ظهرها قائلة لى أن أنام لأن عندها شغلا فى الصباح وليست مثلى تذهب الى الديوان فى العاشرة أو ما بعدها •

وكنت أستاء من ذلك ، لأنى وجدت موقفها منبئا عن استهانة غريبة ، وكأن كل ما كان يعنيها بعد كل ذلك الصراخ أن تخلد الى النوم ثانية وألا يكون الجيران ـ وهم يتسمعون بالفعل ـ قد سمعوا شيئا • وفى بداية زواجنا ، ضايقتها كثير تلك المسألة ، وأثارت خوفها • وعندما حكت لأمها عنها ، رغم أنى حذرتها من ذلك ، قالت لها أمها ، وهى سيدة محترمة ، انى أعانى من وخز الضمير ثم قالت انى خائف من مسؤوليات الزواج ، ثم لما لم يتوقف الكابوس بعد أن أصبحت تلك المسؤوليات من مسائل كل يوم ، قالت انه يحسن بعفاف أن تأخذنى الى طبيب نفسانى ولمحت أن ذلك قد يكون بداية متاعب خطيرة •

وبطبيعة الحال ، لم أقم لكل ذاك وزنا ، رغم أن زوجتى ظلت ـ لوقت ـ تلح على فى الذهاب الى طبيب نفسانى قالت لى ان احدى عماتها ذهبت اليه وتمكن من شفائها • فلما سألتها عن

مرض تلك العمة ، رواغتنى • وفيما بعد ، سمعت كلاما متناثرا عن تلك السيدة فهمت منه أنها حاولت أن تكتم أنفاس زوجها ، وهو نائم ، بوسادة • فلما سألت عفاف عن صحة تلك الحكاية ، بكت وانصرفت من الغرفة ، وبالليل أوصدت باب غرفة النوم فى وجهى ، فاضطررت الى النوم فى غرفة الضيوف • وفى الصباح تحدثت امرأة من الجيران مع عفاف ، فسألتها عن السبب فى ذلك الصراخ الذى سمعه كل من بالعمارة قرب الفجر • وعند عودتها من الشركة ، بعد الظهر ، تحدث معها البواب ، فدخلت الشقة فى حالة انفعال ، وأيقظتنى وأخذت تتشاجر معى •

وكنت ، كلما ركبت عفاف رأسها كما تفعل الزوجات ، فتشاجرت معى بسبب تلك المسألة أو غيرها ، أجعل غضبها يهدأ بوسائل تعلمت بالتجربة أنها تجدى معها ، فلا يطول الشجار أو يتطور ، ويمر على خير • لكنى عندما أيقظتنى من قيلولتى فى ذلك اليوم ، لم أفعل ذلك ، بل تشاجرت معها أنا أيضا ، فذعرت لأنها لم تألف منى ذلك ، وقعدت تبكى ، فتركتها وخرجت الى الشرفة •

والذى كان ينبغى لها أن تدركه أن النوم نهارا بعد العودة من الديوان فى الثانية والنصف، وتناول الغذاء وحدى ، لأنها لا تعود من عملها الا بعد الخامسة ، كان حيويا بالنسبة الى • لأنى بالليل لم أكن أنام نوما كاملا • أى ليس الليل كله • فقد

كنت ـ بعد أن توقظنى وتولينى ظهرها قائلة لى أن أنام ـ أظل أتقلب فى الفراش طوال ساعتين أو أكثر ، وأحيانا كان ضـوء الفجر يتسلل من شيش النافذة وأنا مازلت أتقلب مستعيدا كل ما أكون قد رأيته وحدث لى قبل أن توقظنى • أما النهـار ، فلم يكن يحـدث لى شىء من ذلك ، فكنت آخـذ كفايتى من النوم ، وأصحو منتعشا •

(٣)

فبالليل ، كان الكابوس يلازمنى • وهى علاقة بدأت فى وقت مبكر للغاية ، لأن بداية تعرفى عليه كانت وأنـا طفل صغير فى قرية اسمها أبو زعبل البلد • وبطبيعة الحال ، لم تكن تلك القرية بلدة بالمعنى المعروف ، انما أسميت هكذا للتفرقة بينهـا وبين مكان آخر بالقرب منها اسمه أبو زعبل المحـاجر • وكنا نعيش أيامها فى بيت حجرى كبير وسط خلاء شاسع من الحقول تزحمه أشجار الجوافة والتين والجميز والنخيل • كانت كل نوافذ البيت محصنة بقضبان غليظة من الحديد ، لأننا كنا وسط ذلك الخلاء ، وعلى مقربة من الليمان • ولا أدرى الى اليوم ما الذى جعل أبى يشترى أرضا هناك ويبنى ذلك البيت فيها • ربما كان ذلك لأن أباه ، جـدى عبد الحميد ، كان ضـابطا بمصلحـة السـجون ، وكان يقيم وأسرته بحـكم عمله على مقربـة من

الليمانات والسجون ، وعندما رزق بأبى كان مأمورا أو شيئا من ذلك القبيل بسجن طره ، فولد أبى فى تلك البلدة بالقرب من حلوان ، وقضى معظم سنى طفولته وصباه .

ولم تكن أبو زعبل البلد كئيبة أو مزعجة ، ولو أننا ظللنا نسمع حكايات كثيرة عن الليمان وما يحدث فيه . لكن القرية ، فيما خلا ذلك ، لم تكن تختلف عن أى مكان آخر فى ريف مصر . ومع هـذا لم تكن أمى تطيقها أو تطيق البيت أو الأرض التي بنى فى وسطها وسـوره أبى بغابة صغيرة من الحلفـاء والتين الشـوكى ، فكانت دائمـة السفر الى مصر عند أخيها خـالى الأستاذ عبد الله المحامى ، وبنها والاسكندية .

والذى أذكره من تلك الأيام أنى كنت أنام بجوار أبى فى فراشه . وربما كان ذلك بسبب غياب أمى المتواصل ، أو لأسباب أخرى منها خوفى الشـديد من الظـلام وكونى أصغر اخوتى ومحاباة أبى لى دون سائر أولاده ، أو لأسباب عائلية غامضـة وغريبة لم أقف على كنهها ، ولا يعرف حقيقتها الا الله : ففيما تعلمته من الحياة أنه لا تكاد تكون هناك عائلة ليست فيها مثل تلك الأشياء الغامضة .

ولا أذكر متى كانت البداية . لكن الذى أذكره أنى بعد وقت من نومى بجوار أبى فى فراشـه بدأت أصحو الليل على

صراخ فظيع معوج أشبه بالعواء تصورت فى مبدأ الأمر وذهنى مشوش من النوم أنه عواء حيوان كان يحـاول اقتحام البيت ، وبالذات الحجرة التى كنت نائما فيها ، أو صراخ هارب من الليمان كانوا يلاحقونه ليشنقوه . لكنى ما لبثت أن اكتشفت أن الذى كان يخرج تلك الأصـوات أبى ، فأخذت كلما أيقظنى ذلك الصراخ أهزه لأوقظه وأنا فى قبضة رعب كانت شدته جديدة على رغم ما يألفه الصغار من مخـاوف الطفولة خاصة فى مكان كذلك الذى كنا نعيش فيه . وفى احدى المرات ، وكان ذلك فى الشـتاء ، أطبق أبى على يدى بأسنانه وأنـا أحـاول ايقاظه . ويبدو أنى لم أستيقظ فى تلك الليلة عندما بدأ صياحه ، فوضعت يدى على فمه لأسكته وأنا غارق فى النوم ، وكان فمه مفتوحا ، فوقعت يدى بين أسنانه . وصحوت أصرخ أنا أيضا ، فاستيقظ كل من بالبيت ، واقتحموا الغرفة وبينهم أمى التى وقفت على مبعدة تنظر الى أبى وقد قعد فى الفراش يجيل البصر حوله على ضوء لمبة الجـاز التى كانت بيد أمى ، وينظر الى ، فلما تبينت أمى ما حدث ، قالت : مصائب : وانصرفت من الغرفة غاضبة .

كانت أمى معارضة من مبدأ الأمر فى نومى بغرفة أبى ، لكن الحاحى وبكائى تغلبا على معارضتها ، خاصة بعد أن قلت لها انى ، لو لم تكن تسافر وتتركنا طيلة الوقت ، كنت أفضل أن أنام فى غرفتها هى ، فوافقت وكان ذلك ــ كما قالت لى بعد تلك

الليلة الفظيعة ــ على أمل أن أكتشف لنفسى ما جلبته على رأسى باصرارى على النوم فى غرفة آبى ، فأعود الى النوم فى فراشى فى الغرفة التى كان يشاركنى فيها أخى حامد •

غير أنى ، رغم كل ما حدث ، لم أرض بالنوم فى أى مكان آخر ، فظللت أنام بجوار أبى الى أن أصابنى مرض أبو كعيب ، فعزلونى فى غرفة وحدى كانت تنام معى فيها خالة بهية ، ووقتها عجبت لذلك كثيرا • لكننى سمعت فيما بعد أن الكبار الذين لا يكونون قد أصيبوا بذلك المرض الغريب وهم صغار يمكن أن يصابوا ، اذا ما مرضوا به عن طريق العدوى بعد البلوغ ، بالعقم • ولما كنت آخر من أنجبهم أبى ، وكانت أمى ، طوال ما وعته الذاكرة من تلك الأيام ، لا تشارك أبى فراشه عندما لا تكون مسافرة ، فانى بعد أن كبرت وبدأت أفهم تلك الأشياء ، ظللت أتساءل عن سبب اصرارهم ، عندما أصبت بذلك المرض ، على جعلى أنام بعيدا عن أبى • لكن أمى ، فيما يبدو ، كانت قد وجدت فى ذلك المرض فرصتها لابعادى عن غرفة أبى ، ولما شفيت وطلبت العودة الى النوم بجواره ، رفضت رفضا باتا ، وعدت راغما الى النوم بعيدا عن حمايته •

والذى قد يفهم من كل ذلك ، أنى كنت شديد التعلق بأبى • لكن الحقيقة أنى لم أكن أشعر بأى عاطفة تجاهه ، وكان تعلقى بأمى فكنت فى أذيالها ، كما يقولون ، طول النهار ، خلال

الفترات التي كانت تقضيها معنا بالبيت ولا تكون مسافرة فى مصر ، أو بنهـا لزيارة جدتى ، أو الاسكندرية فى الصيف عند أختها • وفى غيابها كانت تحل محلها فى ادارة شئون البيت والاشراف على مسائل الطعام وما اليها خالة بهية عبد التواب • ولم تكن تلك السيدة خالتنا بحق ، لكننا كنا نسميها هكذا على سبيل الاحترام لا أكثر لأنها كانت قد ربت أمى وهى صغيرة وجاءت معها الى بيت الزوجية عندما تزوجت ، وبقيت معنا فباتت فردا من العائلة • وحتى أبى كان يعاملها معاملة طيبة • وربما كان ذلك لأنها كانت تتولى ادارة شئون البيت كلما غابت أمى ولا تزعجه بمشاكل الخدم والعيال ، وتتيح له بذلك التفرغ لادارة الأرض بعض الوقت ، والانشغال ببنادقه وتكريس معظم وقته لهوايته ــ التى كانت أمى تسميها أفيونته ــ الصيد •

لكنى ، رغم عدم تعلقى بأبى ، أحببت دائما أن أكون بالقرب منه ، وخاصة عندما تظلم الدنيا ويهبط الليل الذى يمكن أن يكون مفزعا بحق فى ريف مصر ــ وبالذات لمن يعيشون على مقربة من ليمان فيه كل أشكال المجرمين والسجانين والمشانق • والذى يبدو لى الآن أن ذلك التشبث بأن أكون بجوار أبى ليلا كان مرجعه حجم أبى ، وبنادقه وبراعته فى الصيد • كان أبى ، كما ظلت خالة بهية تقول لى ، كالجبل • كان طويلا عريضا قويا قوة ظلت حتى مماته مثار حكايات كثيرة

لم تكن كلها مختلفة . والله وحده يعلم ما يدور بأدمغة الصغار ، لكنى لا يراودنى الآن شك فى أنى كنت آلوذ من الليل بذلك الجبل . وحتى بعد أن عاينت بنفسى ملازمة الكابوس له وما كان يفعله به ، ورأيته الليلة بعد الليلة يصحو صارخا متصببا عرقا وهو يرتعد مثلى ، لم يضعف اصرارى على أن أكون بجانبه بالليل . ورغم أن معظم عواء أبى ، فيما أذكره من تلك الأيام البعيدة ، كان عن قرد ظل يراه قاعدا فى شباك الغرفة يحملق فى وجهه ويكشر له عن أنياب صفراء طويلة ، فيصيح بلسان عوجه الرعب : القرد فى الشباك ، القرد فى الشباك ، ظللت أفسر لنفسى ذلك الرعب الليلى الذى كان يعيش أبى فى قبضته بأشياء كثيرة لم يكن الخوف من بينها . فى مبدأ الأمر ، قلت انه لم يكن يعوى بل كان يخرج تلك الأصوات المخيفة ليرعب أعداء تكاثروا عليه ، كان معظمهم من مجرمى الليمان وسجانيه ، وكنا بين الحين والحين تترامى الينا أصوات آتية من بعيد منبئة عن أن أولئك الناس كانوا يطاردون بعضهم بعضا . لكنى . بعد أن ظللت أصحو الليلة تلو الليلة على صراخ أبى من القرد القاعد له فى الشباك ، تخليت عن ذلك التفسير القائم على المعارك ، وقلت ان أبى كان يصرخ فزعا لأنه يخاف على من ذلك الوحش ويخشى أن يقضم قضبان النافذة بأسنانه فيدخل ويفترسنى . وعندما بدأ يطلق بندقيته الخرطوش على تلك

النافذة ، تعزز هذا التفسير فى ذهنى ، وزاد اصرارى على أن أكون بجوار أبى كل ليلة ، لأنى تساءلت عما عساه يحدث اذا ما دخل ذلك القرد من نافذة غرفة أخرى غير غرفة أبى فوجدنى نائما فيها • وحتى عندما وضعت يدى على فم أبى وأنا فى غيبوبة النوم لأسكته فأطبقت أسنانه على يدى ، فسرت الأمر بأن القرد كان قد مد عنقه من خلال القضبان فقضمنى بأسنانه • وعندما قلت ذلك لأمى ، قالت وهى تنظر الى مشفقة : قرد ؟ أى قرد ؟ فقلت : القرد • يقعد لنا فى الشباك كل ليلة ، ويحاول أن يقضم القضبان بأسنانه ليدخل الينا • فأطالت أمى النظر الى وجهى ، وقالت : أما قلت لك ألا تنام بجواره ؟ سيصيبك بتلك العدوى • فقلت عدوى ؟ أبى ليس مريضا ، وأنت تعرفين ذلك • انه القرد ، قلت لك • فأشاحت بوجهها ، قالت : لا تكن عبيطا • عمله الردى هو القاعد له فى الشباك •

وبطبيعة الحال ، لم أصدق شيئا مما ظلت تقوله لى أمى ، فقد شعرت دائما أنه كانت بينها وبين أبى حزازة • وعندما سألت الخالة بهية عن ذلك ، وضعت طرحتها السوداء على فمها ، وقالت : والنبى تسكت وتترك الست والبك فى حالهما • ربنا يرحمنا •

(٤)

والى اليوم لا أدرى ما كانته تلك الحزازة ، لكنى أستطيع أن أخمن . وهذه ، على أية حال ، أشياء لا جدوى من الرجوع اليها ، فالذى يعنينى هنا ما أنا واقع فيه . فبعد أن أرغمتنى أمى على النوم بعيدا عن حماية أبى ، بدأ الكابوس يلازمنى أنا أيضا . فظللت بالليل وأنا أعوى ، وكان معظم عوائى عن ذلك القرد القاعد فى الشباك . لكن القرد لم يطل مقامه ، فتركنى وذهب بعد وقت لم يطل ، وحلت محله أشـياء أخرى كانت فى بداية الأمر محددة وواضحة المعالم : أنـاس ممن كانوا يشنقونهم فى الليمان يسيرون على أرجل ملخلخة وقد مالت أعناقهم وتدلت ألسنتهم وباتت وجوههم متورمة ورمادية كمـا وصف لى أبى ، ومساجين هاربين قد فقدوا بعض أطرافهم ـ أشياء كهذه . لكن الكابوس ما لبث أن تطور . كان ـ فيما بدا ـ قد ظل يتحسس طريقه الى فى مبدأ الأمر بهذه الزيارات الليلية واضحة المعالم . وبعد أن وضع قدمه فى الباب ، فدخل وتمكن ، بدأ يتخفى ، فلم يعد المشنوقون يحـاولون التخـاطب معى بألسنة أثقلهـا ما فعلوه بهم أثناء النهار ، وكف المساجين عن محـاولة وضـع أطرافهم المقطوعة فى حلقى . ذهبوا وتركونى بغتة مثلما فعل القرد ، ولبضـع ليال ظل أبى هو الذى يزورنى ، فأصحو فى

الظلمة وأنا أصرخ فزعا لأنه كان يحـاول أن يذبحنى كسيدنا اسماعيل ، وكانت أختى تعايرنى فى كل مرة قائلة انى ولد شرير ولا أريد أن يأكلنى أبى • لكن حتى هذه المناوشات كانت مناورة أخرى ، تحسسا آخر ، وما لبثت أن انقطعت فكف أبى وأختى عن زياراتهما الليلية • وبعدها تركنى الكابوس وقتا ـ ثم عاد • وفى هذه المرة عاد بلؤم • بغير وجوه أو أشكال وبغير صـوت • عاد بوعـد : ممر ضيق معتم بين حـائطين لا يطـاول البصر أعلاهمـا ، وفى نهايـة ذلك الرعب القاعد ينتظرنى والذى لم يكشف لى الكابوس عن وجهه • أو ماسورة رى ضخمة أزحف فى عتمتها على وعد بذلك اللقاء الذى أصحو كل مرة وأنا أعوى قبل أن يقع • أو حارة فى القرية وقد خلت من كل حى وقدماى قد لصقتا بالأرض والأرض هى التى تتحرك تحتهمـا فتقربنى بلا رحمة من ذلك المنعطف الذى يظل الكابوس يوسـوس فى سمعى بأن اللقاء سيكون عندما أدور حوله ، فأصحو فى اللحظة قبل الأخيرة ـ ان لم يوقظنى أحد قبل ذلك ـ وأنـا أصرخ صراخا فظيعا •

وفى النهاية ، ضاق أخى حـامد بتلك الجلبـة التى كنت أحدثها فى الليل ، فأصر على النوم فى غرفة أخرى بعيدا عنى • ولمـا لم يكن من المعقول أن يتوقع أحد منى أن أنام بمفردى فى غرفة وحدى ، نقلوا فراش خالة بهية الجديد الى غرفتى • ولسبب

ما ، لم تكد الخالة تحل بالغرفة حتى انقطع الكابوس عن زيارتى • وفسر الجميع ذلك بأن الخالة كانت ترتل بعض آيات الله قبل أن تنام وأنها امرأة مبروكة ولا يفوتها فرض • حتى أمى — رغم ما تعلمته فى المدارس — قالت ان الخالة طهرتنى بصلاتها من النجاسة التى علقت بى من النوم فى غرفة أبى • وعندما سمع أبى بذلك منى قعد يقهقه ويهز رأسه متعجبا من قلة عقل النساء مهما تنورن وتعلمن •

وكانت مسألة التعليم هذه مسألة حساسة عند أبى ، لأنه لم يكن متعلما بالمعنى المفهوم • لكنه لم يكن أميا • كان يقرأ الأهرام والمقطم ومصروفات أمى الكثيرة التى ظل يؤكد أنها ستخرب فى النهاية بيتنا رغم أن أبى لم يكن مهندسا أو طبيبا ، أو محاميا كخالى الأستاذ ، كان صاحب طين فقط ، كما كانت تقول أمى بقدر من الازدراء جعلنى أتساءل عن السبب الذى جعلها ترضى به زوجا لها • ففوق افتقاره الى الشهادات ، لم يكن أبى ثريا أو أى شىء من ذلك القبيل • كان مرتاحا ماديا فقط ، كما يقولون ، ولو أنى راودنى دائما شك فى أنه أكثر ثراء مما ظل يتظاهر به • ورغم ذلك • لم نرث بعد مماته الا أشياء قليلة كالأرض وبيتين أحدهما ذلك البيت الحجرى الكبير الذى تربينا فيه وباعته أمى بعد أربعين زوجها ، والآخر البيت الذى ورثه هو واخوته عن أبيه فى طره ، بالقرب من الليمان أيضا •

فلم يكن فى الحقيقة بيتا ، بل جزءا من بيت ما لبثت أمى أن باعته لعمتى التى ظلت تقيم فيه بعد موت اخوتها • هذا كل ما ورثناه، أو بالحقيقــة ورثتــه أمى ، أما النقود ، أو الورق أبو مئذنة كما كانوا يسمونه ، فلم نجد منه فى خزانــة أبى الحديدية شيئا يذكر • وأذكر أن أمى قالت اذ ذاك أن المرحوم كان قد ضيع كل شيء على الموبقات ، رغم أن أحــدا لم يسمع أن أبى كان يسكر أو يدخن الحشيش أو يلعب القمار • فحتى بعد موته ، لم تتخل أمى عن تلك الحزازة التى ملأت قلبها له •

(٥)

ومن رحمة الله أن عفاف لا تكن لى مثل تلك الحزازة ، وأنها ــ بشكل عام ــ امرأة مريحة ، بالقدر الذى يمكن أن يطمع أى زوج أن تتصف به زوجته من حسن الجوار فى عيشها معه • فنحن ، بعد كل شيء ، نعيش معــا كجيران : حتى فى غرفــة النوم • ولحسن حظى ، رزقنى الله بجارة غير مشاكسة كعفاف تحب الضحك والغناء أكثر مما تحب النكد والبكاء ، وتتعامى عن أشياء كثيرة يمــكن أن تجد فيها أى امرأة أخرى منفــذا للشجار • ولا يعنى أنها مــلاك أو أى شيء من ذلك • فالمرأة هى المرأة مهما أحسن الله صنعها • وأقصى ما يمــكن أن يتمناه رجل أن تكون المرأة التى يدخلها فى عشرته قليلة النقــار غير

مولعـة بالمناحات العائليـة • لكن لكل امرأة ـ مع ذلك ـ لحظاتها ، كما يعرف كل زوج •

والواقع أن زواجي من عفاف جعلني أراجع نفسي فأتساءل عن صحة ما كنت قد توصلت اليه من تفسيرات عائلية لظاهرة الكابوس عند أبى • وكنت قد فسرت الكابوس بعدم رغبة أمى فى جعل حياته مريحة • وقد أكون تماديت فى بعض اللحظات ، فقلت فى نفسي ان ذلك القرد الذى ظل قاعدا له فى الشباك الى ما قبل وفاته بأشهر ، كان نفور أمى منه وكراهيتها له • كانت تلك الحزازة التى ملأت قلبها تجاهه لأسباب لا يعلمها ـ مهما خمن المرء ـ الا الله • لكنى ، بعد أن تزوجت ، وعشـت مع عفاف ، قلت طيب • ان كان الكابوس لازم أبى لأن أمى ظلت تشعر بذلك الشعور تجاهه ، فلماذا لازمنى أنا وعفاف لا تشعر نحوى بشعور مثله ولا تعادينى أو تجعل حياتى نكدا ؟

وفيما يخصنى ، كان الكابوس ـ عندما كنت صغيرا ـ عدوى أصابتنى من أبى • وربما كان ذلك هو ما خافت منه أمى عندما حذرتنى من النوم بجواره • وجدنى الكابوس ملقى هناك بجوار أبى ، فحل بى أنا أيضا ، خاصة وأنى ظللت ألمس أبى وهو فى قبضته ، وأضع يدى على فمه وهو يعوى • وقد عزز ذلك الادراك عندى ما ظلت أمى مصرة عليه من أن الكابوس كان نجاسـة علقت بى من النوم فى فراش أبى • لكنى عندما

كبرت ، أخذت أبحث عن تفسيرات أخرى يقبلها العقل • فقلت ان الصغار يكونون شديدى التأثير بما يحدث للكبار • وذكرت نفسى بالمخاوف الطبيعية التى يعرفها كل طفل • وقلت اننا ، فوق هذا وذاك ، كنا نعيش فى ذلك الخلاء منقطعين عن الدنيا ، قريبا من الليمان الذى ظلت أقوال الكبار تتناثر فى مسامعنا يوما بعد يوم عن الأشياء التى تحدث فيه والأشياء التى تخرج منه ليلا • لكن كل تلك التفسيرات التى لا يقبلها العقل باخت لأن أحدا من اخوتى لم يحل به الكابوس ليلة ، وظللت أنا وحدى الذى يصحو من بينهم وهو يعوى •

فبعد أن تركنى الكابوس وقتا اثر انتقال الخالة بهية الى غرفتى ، عاد فحل بى من جديد ولم يتركنى فلازمنى حتى بعد أن مات أبى وباعت أمى البيت وأخذتنا الى القاهرة حيث تعلمت وتخرجت من الجامعة وتزوجت •

وفى بداية الأمر ، عندما تزوجت ، شعرت بالخجل من الكابوس وكأنه برص أو بهاق أو جرب، لأن عفاف ظلت توقظنى منه مستغربة وترانى على الصورة الزرية التى كانت أمى ترى أبى بها أحيانا عندما تكون بالبيت وتدخل مع من كانوا يدخلون غرفة نومه وهو يعوى ، ويصحو فزعا غارقا فى عرقه مرتعشا كعيل مذعور • لكنى ــ بعد وقت ــ فارقنى ذلك الشعور بالخجل ، وانقلب الأمر الى استهانة ، ثم تحد • شعرت وكأن

زوجتى ــ لمجرد أن لها الحق فى مشــاركتى فراشى ــ أعطت نفسها الحق فى التدخل فى أخص شؤونى والحجر على حريتى • ولقد يبدو ذلك بعيدا عن المنطق وغير معقول ، الا أنه ما شعرت به • واعتقدت ان لى بعض الحق فيه • لأن لكل منا حيــاته ومشاكله التى تخصه ولا شأن لأحد بهــا • حقيقة أن الزواج يقحم الواحــد منا فى حيــاة الآخر ، لكن ذلك ــ ككل شىء آخر ــ ينبغى أن تكون له حدوده • فأنا ، مثلا ، لا آخذ على عفاف شغفها غير الطبيعى بقراءة الروايات الغرامية الرخيصة ، أو الولع المبالغ فيه بأغــانى العشق والغرام • ولو كنت شخصا آخر لشعرت على الأرجح بالقلق أو راودنى الشــك وملأتنى الغيرة • لأنه بعد الزواج لا يكون هنــاك كل ذلك العشــق والغرام ، وبالأقل لا يكون كل ذلك الانشغال بالعزول والوصال وكل هذه المسائل • لكنى لم أشــعر بأى استياء ، ولم أنظر الى المسألة باستغراب يجعل عفــاف تشعر بالحرج أو الخجل ، ولم أعلق على اندماجها فى أغنية لشادية أو عبد الحليم حافظ بقولى « سبحان الله » أو « اللهم احفظنا » كما كانت تفعل أيام كانت توقظنى من الكابوس ، ولم أقل بكل تأكيد شيئا مما قد يلغط به الجيران وهم يسمعون كل تلك الأغــانى الغرامية تلعلع من الشقة بمجرد أن تعود عفاف من عملها بالشركة •

تلك المقارنــات ملأتنى بشــعور من الحنق ، وبلغ ذلك

الشعور مداه يوم سألتها عن عمتها التى حاولت أن تكتم أنفاس زوجها بالوسادة وهو نائم فبكت وبالليل أوصدت باب غرفة النوم فى وجهى فاضطرتنى الى النوم فى غرفة الضيوف ، وكانت النتيجة آنى ــ عندما جاء الكابوس ــ لم أجد من يوقظنى منه قبل أن يستفحل ، فسمع معظم من بالعمارة عوائى ، ووصل الأمر الى مسامع البواب وصاحب البيت • والأخطر من كل ذلك أنى كدت أموت فى قبضة الكابوس فى تلك الليلة ، وهو ما جعلنى أتشاجر مع عفاف ــ ربما لأول مرة منذ تزوجنا ــ عندما عادت الى البيت محنقة مما سمعته من كلام البواب والجيران فأيقظتنى من قيلولة بعد الظهر التى كنت مستغرقا فيها لأستريح مما حدث لى ليلا •

(٦)

لكنى ، فيما بعد ، شعرت بالندم للأشياء التى قلتها لعفاف فى حمأة الغضب فجعلتها تبكى • من أنها خافت على سمعتها ، أنا وهى ، مما قد يتقول به الجيران ويخوض فيه الخدم والبواب• فالناس ألسنتهم مسمومة ولا تحب أن تترك أحدا فى حاله • فوق أن زوجتى لم تكن تدرى شيئا عما تطور اليه الكابوس • ولا أظن أنها ــ لو عرفت ــ كانت ستوصد الباب فى وجهى فتضطرنى الى النوم وحدى فى غرفة بآخر البيت لا أجد فيها من يوقظنى قبل أن

يتمادى الكابوس فيوشك أن يجهز على • كان الكابوس قد ازداد شراسة • فالألفة تولد الاحتقار ، كما يقولون • وربما وجد الكابوس كل ليلة ، بطبيعة الحال ، لكنه ظل منذ أيام الطفولة البعيدة يزورنى فى معظم الليالى • وربما كنت ، فى الحقيقة ، ألفته ، فاستهنت به — الى الحد الذى يمكن أن يستهين به أحد ازاء كابوس شبه ليلى يوقظه منه الآخرون وهو يعوى رعبا • وربما كان ذلك خطأ من جانبى ، لأن رجاحة العقل كانت تقتضى أن أدرك أن الكابوس لا تفرغ له جعبة ، وأنه — متى شاء — يمكن أن يباغت من يحل به ، فى كل ليلة بجديد • وهذا هو ما حدث معى • تغير الكابوس • بات أشد ضراوة من أى وقت مضى ، وراودنى شعور بأنه كان قد بات مصرا على الأذى ، وأن المسألة فيما يخصنى كانت قد تجاوزت مرحلة المناوشات الليلية ودخلت مرحلة أخرى كان يمكن بالفعل أن يقتلنى خلالها ، كما أوشك أن يفعل فى تلك الليلة التى نمتها وحدى بعيدا عن يد عفاف المنقذة التى تهزنى فتوقظنى •

والذى أخشاه ، وقد استدرجتنى مشكلتى الراهنة الى هذه المصارحات التى أعلم من مبدأ الأمر أنها لا جدوى منها ، ولم يكن ينبغى أن أنساق اليها لولا أنى كالغريق الذى يتعلق بقشة ، أن يظننى أحد مجنونا أو فى حاجة الى العلاج النفسى أو أى شىء من تلك السخافات التى نصحنى بها عباس علوانى

ونصحتنى بها عفاف زوجتى رغم أنها قعدت تشتم عباس وتقول انه يتظاهر بخفة الدم على حسابى . والحقيقة أنى أتمنى الآن من كل قلبى لو كان الأمر كذلك . فمثل تلك الأشياء . كالذهاب الى مستشفى المعادى أو التردد على عيادة طبيب نفسانى ـــ أهون بكثير مما أنـــا فيه . لكن الأمر ليس كذلك . لأن مشكلتى الحقيقة ، الورطة التى أنا فيهـــا الآن ، أن الكابوس توقف . انقطع لم يعد يحل بى ليلة بعد ليلة أو كل بضع ليال . تركنى وذهب . ولم أعد أصحو فى الليل أعوى وأتصبب عرقا وارتعش كمن به حمى .

وأنا أعرف . الأجدر بى ، كما قال لى عباس وهو ينظر الى باستغراب عندما صارحته بمشكلتى أن أفرح وأشكر الله . أن أشعر بالأمان . أن أكون سعيدا بزوال تلك المصيبة التى لازمتنى منذ طفولتى . وكما قالت عفاف ، عندما حكيت لها عمـــا قاله عباس عن مستشفى المعادى ، يمكن فعلا أن يكون عباس قـــد وجد فيما صارحته به فرصة للسخرية منى . لكن عفاف هى الأخرى أصرت ـــ عنـــدما رأت ما حـــدث لى بعد انقطـــاع الكابوس ـــ على أنى يجب أن أذهب الى ذلك الطبيب النفسانى الذى عالج عمتها فجعلها تكف عن محاولة قتل زوجهـــا وهو نائم ، وقالت انها لا تستطيع أن تفهم كيف يمـــكن أن يركبنى كل هذا الغم لأنى لم أعد استيقظ فى الليل وأنا أعوى وأموت

رعبا . وبالمنطق طبعا ، يبدو هذا صحيحا ، لأن أحدا لا يحب أن تحدث له كلما نام تلك الأشياء التى كانت تحدث لى ، خاصة خلال الأشهر القليلة التى سبقت انقطاع الكابوس . والواقع أنى مازلت أعجب كيف لم أمت فى قبضة الرعب الذى لم أعرف له مثيلا من قبل خلال زيارة من تلك الزيارات التى يبدو الآن كما لو كان الكابوس أراد أن يودعنى بها . وأنا مدرك لكونى أتحدث عنه كما لو كان شخصا مثلى ومثلكم ربطتنى به علاقة حميمة ، كما لو كان كائنا عاقلا يفكر ويدبر ويتكلم . ورغم أن ذلك يبدو غير معقول ، لاشك عندى اطلاقا فى أنه يفكر ويدبر ـ بلؤم غريب ، والذى أعرفه من خبرتى المعاشة ليلا أنه يتكلم ، أحيانا ، عندما يريد . فقد أوشك فى بعض المرات أن يكلمنى ، أن يصارحنى بأشياء أراد أن يوقفنى عليها ، فى تلك المرات يأتينى فى صورة أبى . وبطبيعة الحال ، لم أستطع أن أقطع بأنه كان أبى ، لأنى لم أجرؤ على النظر فى وجهه . فقد خشيت أن أرى ما فعله الموت به . وفى مرات أخرى كان يأتى فى صورة امرأة فى نقاب أسود . وكان يقترب منى ويهم بأن يهمس ، بأن يقول شيئا ، لكن رعبا ما حقا كان ينتابنى ، وقبل أن تنطق تلك المرأة كاسية السواد بحرف مما كانت موشكة على مصارحتى به ، كنت أدفعها بعيدا وأنا أعوى « روحى ، روحى ، ابعدى عنى » وقد اعوج لسانى وباتت أطرافى فى ثقل الرصاص .

وكانت عفاف تسمعنى وهى توقظنى • وبدلا من أن تشعر بالاشـفاق على مما كنت غارقا فيه ، ثار فضـولها الأنثوى ، وراودتها شكوك زوجيـة ، فظلت تسألنى عن تلك المرأة التى أحلم بها ثم أظل أعوى طالبا منها أن تبتعد عنى • فلما لم أقل شيئا ، ضحكت وتقصعت وقالت انها ليست خريجـة جامعـة مثلى ، لكنها ليست جاهلة ، وقد تكون أكثر اطلاعا منى لأنهـا لا تكف عن القراءة ، وقد قرأت فى المجـلات (التى يكتب محرروها عن تلك المسائل أحيانا عندما لا يجدون ما يملأون به صفحاتها) اننا نحقق ونحن نيام ما نظل نشتهى أن نفعله ونحن نروح ونجىء فى حياتنـا اليوميـة • ورغم أنى صممت على ألا أستدرج الى قول شىء ، قلت لها ان الأمر ليس كذلك • لكنهـا لم تعن بأن تستوضحنى معنى قولى ، بل قـالت كذلك أو ليس كذلك ، أنا لا يهمنى • كل ما أريد أن أعرفه هو من تكون روح أمها هذه التى تطلع لك فى الحلم وعندما توشـك أن تفعل معها ما تريد ، يرعبك ضميرك فتظل تقول لها روحى ، روحى ، ابعدى عنى ؟ ولحظتها تذكرت أن أمى هى الأخرى كانت تقول عن قرد أبى القاعد فى الشـباك أنه لم يكن قردا ولا شىء بل عمل أبى الردى ، فهززت رأسى ولم أقل شيئا ، لأنه ما الذى كنت مستطيعا قوله لأجعل عفاف تفهم الأمر على حقيقته ؟ وقد زاد ذلك من حنقى عليها • ولا يعنى هـذا أنى

كرهتها أو أى شىء من ذلك . فأنا احبها حقا ، وأجدها لطيفة المعشر وغير مزعجة كمعظم النساء اللائى يجعلن جيرتهن عذابا لمن يعيش معهن . لكن ذلك الحديث وغيره مما ظل يجرى بيننا بسبب عوائى الليلى ظل يباعد ما بيننا دون أن نشعر . والحقيقة أنى انتبهت فى النهاية الى أن الكابوس كان جاهدا فى دفعى بعيدا عن كل من عشت بينهم لينفرد بى فى خرابة من الخرابات التى يأخذنى اليها ليلا . ولا أريد بذلك أن أقول انى فقدت اهتمامى بعفـاف . فهى زوجـة حقيقية ، وتشبع كل مطـالبى . وهى حاضرة معى دائما ، خلال ساعات النهار . كما أنى ، فيما يخص غـيرها ممن أعمـل معهم أو تربطنى بهم علاقـات صـداقة أو عمل ، لم أنعزل عنهم أو أنطو على نفسى أو أى شىء كهذا . ظل لى زملاء وأصـدقاء ومعارف ، وظللت رئيسا لا يكرهـه مرؤوسـوه كثيرا فى الادارة التى أعمل بهـا بوزارة التربيـة والتعليم ، ويقدره رؤسـاؤه ويجاملونه ويدعونه الى بيوتهم ، ويزورونه أحيانا فى بيته . ولم أنعزل حتى عن أولئك النـاس الذين تعمل عفاف معهم فى الشركة العامة لمستلزمات المجـارى والأدوات الصحية ، فأذهب معها ، كلما أصرت ، الى ما يقيمونه من حفـلات زفـاف أو مآتم ، وأعطيها عن طيب خاطر ما تحتاجه من نقود لتقدم الهدايا لهم أو ترسـل اليهم برقيات التعازى . ولم أعارضها كثيرا عندما بدأت تتحدث عن الأطفال وكيف أنهم

سيملأون البيت علينا واستجبت لتاميحاتها المتلاحقة بأن الوقت حان لنفـكر فى انجابهم خاصـة بعد أن ارتفع راتبى كثيرا اثر الترقية الأخيرة وسددنا القسط الأخير من أقساط السيارة النصر .
والذى أريد قوله انى أعيش حياة نشطة وحافلة وأروح وأجىء وأفعل كل ذلك عن طيب خاطر كما يفعل الآلاف أمثالى . لكنى فقدت اهتمامى . ولا أدرى كيف بدأ ذلك أو متى بدأ . وجدتنى فجـأة غير مهتم لشىء . أن يحدث سـيان ، لكنه يحدث كل يوم ـ بحكم الاعتياد . ولا أجد متعة فيه أو معنى له وكأن من يفعل كل تلك الأشياء أو تحدث له يفعلهـا لأنه يعيش ليفعلها وتحدث له . ولا يعنى ذلك أنى أقف على مبعدة أرقب كل ذلك أو أى شىء من هـذا اللغو الذى تتحدث عفاف عنه . فقد ظللت أنـا الذى يذهب الى الديوان ، ويشـتغل ، ويقرأ الأهـرام والجمهورية أحيانا ، ويجـالس الأصـدقاء ويشاركهم تهريجهم ونكاتهم وما تقول عفاف انهم يصطنعونه من خفة الدم ليقطعوا دابر بعضهم بعضا ، ويزورهم فى بيوتهم ويزورونه فى بيتـه ، ويجالسهم على القهوة ، ويعود الى البيت وفى حقيبة سـيارته أكياس من الفاكهة وغيرها ، ويتناول الطعام ، ويجالس زوجتـه عندما تعود من الشركة فتحكى له عن كل ما حدث بالشركة فى ذلك اليوم ، وهو لا يختلف عادة عما يكون قد حدث فى اليوم الذى قبله ، ويأخذها الى السينما ، وأحيانا الى المسرح ، ويفعل

كل ما يفعله الآخرون . وفى آخر النهار يشعر بالارتياح لأن النهار انقضى . وعندما ينفرد بنفسه فى الحمام أو دورة المياه ، ويستعيد ما فعله وحدث له وما قيل له وقاله هو للآخرين ، لا يجد لكل ذلك معنى أو يجد فيه متعة ، لا يجد له مذاقا أو يجد له لونا . ولا يزعجه ذلك ، كما أنه لا يبتهج له ، بل يأخذه مأخذ كل ما فعل طوال النهار وما قاله وقيل أو حدث له .

وأنا الآن أخشى أن أقول ذلك ، لكن الحقيقة أنى كنت ، قبل انقطاع الكابوس ، أشعر بعد انقضاء النهار وكأنى موشك أن أستيقظ . لعل ذلك أقرب ما يمكن أن يقال . وكما يتطلع من يستيقظ صباحا بعد ليلة طويلة من نوم أبيض لا يحدث فيه شىء الى يوم نشط ملىء بالأحداث والحركة والمفاجآت الصغيرة ، فتنتابه هزة خفيفة من الاثارة والترقب قد تأتيه وهو يستحم أو يحلق ذقنه أو ينظف أسنانه أو يتناول افطاره ، كنت أتطلع أنا بعد انقضاء نهار طويل الى ليلة جديدة يفاجئنى الكابوس خلالها بجديد .

ولم يكن الكابوس يخيب ظنى فى معظم الأحيان . وبخاصة فى تلك الشهور الأخيرة التى سبقت ذهابه عنى . ولقد بدا لى دائما أن كل أولئك الناس الذين يأكلون عيشا من وراء اختلاق القصص والروايات وتلفيقها للضحك بها على عقول البسطاء

كزوجتى عفـاف ، لن يكونوا فى أى وقت قادرين ، حتى وان اجتمعوا كلهم معا ، على مقاربة قدرة الكابوس على الاختراع والتلفيق والمباغتة •

وأنا ـ لأن هناك من الأشياء التى تحدث ليلا ما لا يطيق العقل أن يتذكره فى ساعات اليقظة على ما يبدو ـ لا أذكر كل ما ظل الكابوس يباغتنى به ليلا طوال السنوات التى لاحقنى خلالها ، منذ أول ليلة حل بى فيها وأنا ملقى بجوار أبى ، الى تلك الليلة الأخيرة التى سبقت انقطاعه والتى أيقظتنى فيها عفاف وقد اختلط صراخها بصراخى اذ انتابها ـ لأول مرة ـ رعب حقيقى جعلها تنسحب متباعدة عنى الى آخر الفراش بعد أن أيقظتنى ، وكأنها نفرت من تلك النجاسة التى كانت تتحدث عنها أمى ، وقد مدت ذراعيها أمامها وبسطت راحتيها وهى ترتعد وتردد بصوت ملهوج آيات من الذكر الحكيم كما كانت الخالة بهية تفعل • وبطبيعة الحـال ، لم أسألها لم حدث لها ذلك فى تلك الليلة بالذات دون كل الليـالى السابقة التى أيقظتنى من الكابوس فيها ، ولم تكن بى حاجة الى سؤالها ، فقد شعرت بأن ما باغتنى به الكابوس فى تلك الليلة ـ وكأنه كان يودعنى ـ كان قد انتقل رعبه منى الى عفاف بغير كلام • ولسوء الحظ ، أنـا لست ممن يمسكون يوميات أو يكتبون مذكرات يسجلون فيها ما يحدث لهم • وليتنى فعلت ، لأن هناك أشياء كثيرة حدثت لى

ليلا وخانتني الذاكرة الآن فضاعت مني • لكن ما ظللت أذكره من تلك الأشياء يكفي لأن أعيش الآن عليه •

فبعد أن فارقني الكابوس ، أفرغت حياتي • في الأيام الأولى التي أعقبت انقطاعه شعرت شعور من أخذ أجازة لأول مرة في حياته • شعرت بنفسي خفيفا نزقا • وذهبت مع عفاف الى أماكن كثيرة كانت قد ظلت تلح علي في الذهاب اليها دون جدوى فيما مضى • كنا كمن يتضيان شهر عسل جديد • أو كولد وبنت هربا من أهلهما وذهبا الى أماكن خبيئة يضحكان ويمرحان فيها معا بعيدا عن الناس جميعا • وقالت عفاف وهي تضع ذراعيها حول عنقي أني — برحمة الله — ولدت من جديد • لكنها وهي تقول ذلك لم تكن تعرف أن تلك الأجازة كانت تقترب بسرعة من نهايتها • ولعلها لم تلحظ في أول الأمر ذلك الشرود الذي كان قد بدأ ينتابني — وحقيقة الأمر أني كنت قد بدأت أفتقد لقاءاتي الليلية وكل تلك الأماكن الغريبة التي كان الكابوس يأخذني اليها • وليس معنى قولي اني كنت قد بدأت أشعر بالملل • فهذه بالذات هي المشكلة • وليست المشكلة أني أستسلم لذلك الضجر وفقدان الاهتمام من تلقاء نفسي • فالأشياء هي التي تفعل بي ذلك • تظل ثابتة هي هي لا تتغير ، ولا يكون فيها جديد • كم مرة يمكنك أن تذهب الى القناطر فتجدها مثيرة ، أو ممتعة ، أو باعثة على الاهتمام ؟ مرة ، بعد مرة،

بعد مرة ، أو العجمى ، أو الأهرامات ، أو مريوط ، أو المريخ ؟
كل الأماكن والأشياء والوجوه والأصوات والروائح والألوان
فيها ذلك الرسوخ . ذلك الثبات . لا تتغير . لا تتحول .
لا تنقلب فى لحظة من حديقة خضراء الى صحراء أو غابة
أو خرابة . والبيوت أيضا ، والمكاتب والدكاكين . تظل هى
هى . لا تتحول بمجرد أن تلتفت أو تشرد لحظة الى مغارات
أو كهوف أو آبار عميقة تطل برأسك داخل ظلمتها التى تشدك
بأيد قوية وأنت مدرك أنها لا قرار لها وأنك ان سقطت فيها
ستظل تهوى ولا تسمع الا صدى صرخاتك . وكم مرة يمكنك
أن تجالس امرأة ، مهما كانت حسناء ولطيفة المعشر وضحوكا
وفى صوتها غنة ، أو تعانقها ، أو تستسلم لغوايتها ، حتى وان
كانت أميرة الأميرات وست البنات ؟ بعد كل تلك المرات ،
ألا تظل هى هى ، لا تتغير ، لا تباغتك بجديد ، لا تتحول فى
غمضة عين الى مخلوقة من تلك المخلوقات التى كان الكابوس
يسوقها الى الليلة بعد الليلة فتحاول أن تلفنى فى عباءاتها
لتأخذنى الى تلك الأماكن التى ظللت أصحو متصببا عرقا من
الأشياء التى كنت أعلم ــ بتلك البصيرة التى يشعل جذوتها
الكابوس ــ أنى ملاقيها هناك ؟

ورغم أن الكابوس كان قد ازداد شراسة قرب انقطاعه ،
لم تطل كثيرا تلك الهدنة فى حياتى . فيوما بعد يوم ، يتضاءل

الآن اهتمامى • وبطريقة ما ، لعل الفضل فيها لغريزة الأنثى التى لا تخيب ، حدست عفاف ما هو حـادث لى ، رغم أنى ظللت أتظاهر أمامها بكل ما لا أشعر به ، فعادت الى الالحـاح على فى الذهاب الى ذلك الطبيب النفسانى الذى تدعى أنه داوى عمتها من جنون القتل ولمـا ضقت بالحاحها ، تشاجرنا • ورغم أنى ضقت باستدراجها اياى الى ذلك الشجار ، فانى لا آكف عن التساؤل : من منا على حق ؟ فهى فى الحقيقة لم تفعل أكثر من أنها أرادت أن تطول تلك العطلة ، ولم يخطر لها ببال ، بطبيعة الحال ، أن ذهاب الكابوس عنى خلفنى فى العراء ، وأنى أعانى الآن من احباط أعقب فورة النزق الأولى • وليس بوسع عفاف أو عباس علوانى أن يتصوروا أنى افتقدت ذلك الذى كان يحدث لى ليلا • وعفاف ، وان كانت لم تقف على ما كان يحـدث فى لقاءاتى بالكابوس ، أو فى الحقيقة لم تعن بأن تقف عليه ، لأنى حـاولت مرة أو مرتين أن أحـكى لها ، فأدارت ظهرهـا الى ونامت ، ظلت تعاين آثار تلك اللقاءات عندما تصحو فزعة على عـوائى ، فتوقظنى • وكان ذلك يكفى ، فيما يخصـها ، لأن تتصور ، كما تصور عباس ، أنى يجب أن أحمد الله على زوال تلك الغمة الليلية التى طالت الى أن بلغت الأربعين • وأنا الآن اذ أفكر فى ذلك ، لا أملك الا أن أتساءل : ماذا عساهما أن يقولا لو وقفا على ما وقع لى فى الليلتين اللتين سبقتا انقطـاع الكابوس •

فى أولى الليلتين ، كنتُ معذرة ، فى بيت الراحة ، لقضاء حاجـة • وكما يحدث فى الكابوس دائمـا ، كان كل شىء فى البداية سلسا ، بل وكنت ــ لسبب ما ــ مبتهجا لوجودى فى ذلك المكان ، مرتاحا لما كنت أفعله • لكن الوضع تغير بغتة • بدأت أشعر بالخوف • فقد كان ما بأمعائى لا يريد أن يفرغ • ولم يكن المرحاض يعمل جيدا ، ففاض ما به على أرض المكان • ورغم أنى ظللت أحاول أن أكف ، بدا أن التوقف كان قد أصبح مستحيلا • كنت كمن بداخله طوفان انهارت أمامه كل السدود ولم يكن ينوى ــ وقد استقل بارادته عنى ــ أن يتوقف • وبدأ ما فاض على الأرض يعلو ، فغاصت فيه قدماى ، ثم ساقاى ، وأمعائى لا تفرغ • وتحول خوفى الى ذعر • أيقنت أنى سأغرق ، فحاولت الوقوف للخروج من ذلك المكان رغم أنى كنت أعلم أنى اذا خرجت سأجـد نفسى فى الشـارع عاريا غير قادر على التحكم فى أمعائى • لكنى لم أستطع الوقـوف أو الخروج ، لأن ساقى كانتا قد تحولتا الى كتلتين ثقيلتين من رصـاص • وكأنمـا فطن المكـان الذى كنت فيه الى نيتى ، فتحول الى صندوق كبير لا مخرج منه • وعندما رأيت أطرافا آدمية ورؤوسا وقطعا من لحم سابحة فوق ذلك الطوفـان الذى وصـل الى صدرى ، بلغ الرعب مداه ، خاصة وأن يدا كانت تحاول دفعى لأسقط فأغرق • وعندما صحوت ، كانت عفـاف تهزنى بعنف لتوقظنى •

وفى الليلة التاليــة ، كنت ذاهبا الى بيت عبــاس علوانى لأبحث معه مسألة بالغة الأهميــة • وكنت فى عجلة من أمرى • لكنى ضللت الطريق ، ووجــدتنى فى أرض خــلاء ، فى مكان لا أعرفه ، فى الريف • وأظلمت الدنيا حولى ، فأخذت أجرى • وعندما فعلت ذلك أخذت أقدام كثيرة تجرى فى أعقــابى • ثم وجدت نفسى أمام مغارة فى جبل المقطم ، فتوقفت • وترددت فى الدخول ، لأنى علمت أنى استدرجت الى شرك • لكن الأقدام التى كانت تجرى ورائى اقتربت ، وتذكرت أن الوحوش تخرج من مخابئها بمجرد أن تظلم الدنيا ، وأن المشنوقين والمقطوعة أطرافهم يخرجون من الليمان ، فدخلت المغارة ، ووجدت نفسى فى نفق ضيق طويــل مظلم أخــذت أجرى فيه وتلك الأقــدام تلاحقنى ، الى أن وجدتنى فى كهف فسيح رطب وضعت فى وسطه لمبة مما يدعوه الفلاحون الشيخ على ضئيلة الضــوء ، أسرعت صوبها ، فسمعت بابا ثقيلا من صاج أو حديد يوصد ورائى ، فاستدرت ، ورأيت على ضوء اللمبة شراعة من زجــاج بأعلى الباب ، وشلنى رعب من وجه المرأة كاسية السواد التى عرفت أنها ستطل على لتوها من وراء الشراعة وتسفر لى عنه ، فقعدت أرضا عند اللمبة ، وظهرى الى الباب • وعندما نظرت حولى على الضوء الباهت ، وجدت أنى قعدت وسط حلقة من موتى مكفنين رصــوا حولى بعمق صفين ، ثم رأيتهم يتململون ويحــاولون

الاقتراب منى ، فأدركت أنى استدرجت الى القبر • وعنـدما أحسست بيد المرأة ، وقد دخلت من الباب ، تدفعنى فى كتفى وتحـاول أن تجعلنى أنكفىء على وجهى بين أولئـك الموتى ، صحوت فوجدت عفاف تهزنى بعنف وهى تصرخ ذلك الصراخ الفظيع الذى اختلط بعوائى ، ثم تبتعد عنى الى أقصى الفراش مادة ذراعيها أمامها وهى تردد آيات من القرآن الكريم •

وكان ذلك آخر لقاء لى بالكابوس ، من وقت طويل • وأنا الآن ــ متظاهر بأنه لم يحدث شىء ــ أعيش على أمل أن يعود • والذى أذكره أن أبى لم يطل به العمر ، بعد أن فارقه أكثر من بضعة شهور •

الفهـرس

صدر من هذه السلسلة :

● الرجل المناسب	(قصص)	فتحى غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصتان)	عبد الرحمن فهمى	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	ابو المعاطى ابو النجا	٣
● بالأمس حلمت بك	(قصص)	بهاء طاهر	٤
● رباعيات	(قصص)	شكرى عياد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمال الغيطانى	٧
● رشق السكين	(أقاصيص)	محمد المخزنجي	٨
● وعلى الأرض السلام	(رواية)	فاروق خورشيد	٩
● الاشواك والأسى	(قصص)	عبد الحكيم قاسم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● ان تنحدر الشمس	(قصص)	سحر توفيق	١٢
● لا تسقنى وحدى	(رواية)	سعد مكاوى	١٣
● كهف الاخيار	(قصص)	شكرى عياد	١٤
● محطة السكة الحديد	(رواية)	ادوار الخراط	١٥
● حصار القلعة	(م. شعرية)	محمد ابراهيم ابو سنة	١٦
● اربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٧
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقى	١٨
● انا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر	١٩
● تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢٠
● الوداع : تاج من العشب	(قصص)	عبده جبير	٢١
● النجوم العالية	(قصص)	محمود الوردانى	٢٢
● قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
● الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
● عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض	٢٥
● طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٢٦
● طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو	٢٧
● السحر الأسود	(رواية)	شفيق مقار	٢٨

العدد القـادم :

- تسلق الجدار الأملس (قصص) حسنى عبد الفضيل

فى أعدادنا القادمة :

- احتضار قط عجوز (قصص) محمد المنسى قنديل
- ما اجملنـا (مسرحيتان) محفوظ عبد الرحمن
- حيات النفتالين (روايـة) عاليـة ممـدوح
- رحلة فى الليل (قصص) عبد الله خيرت
- الخــوف (روايــة) عبد الفتاح الجمل
- لم يعد الضحك ممكنا (قصص) يوسف القعيد
- المظـلات (قصص) عائـد خصبـاك
- الحنان الصيفى (قصص) احمـد الشـيخ
- حبال السام (قصص) فاروق خورشـيد

● عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشور
● عكس الريح	(قصص)	يوسف أبو رية
● هذا ما كان	(قصص)	محمد البساطى
● زهر الليمون	(قصص)	علاء الديب
● رياح الشمال	(قصص)	ابراهيم اصلان
● القط البرى	(قصص)	سليمان فياض

تطلب كتب هذه السلسلة من :

● باعة الصحف ● مكتبات الهيئة ● المعرض الدائم للكتاب بمقر الهيئة ● معارض الكتاب بداخل مصر والخارج ● مكتبات الهيئة المتنقلة بالاحياء والاقاليم .

رقم الايداع ٨٦/٣٥٠٩

الترقيم الدولى ٧ ـ ٩٩٦٠ ـ ١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مختارات فصول

تصدر أول كل شهر

قراءة هذه الرواية القصيرة ، تجربة بالغة الخصوصية ؛ إنها تجربة القراءة التى تجعل القارىء مشاركاً بالفعل فى بناء المعنى الكلى لما يقرأه ، بما تطلبه كتابة المؤلف من ذهن القارىء ووجدانه . إنه التعبير البسيط المباشر والواضح والخالى من التحريض على الأنفعال أو التوتر ، ولكنه تعبير عن أمور شديدة التعقيد وربما شديدة الغموض أيضاً ، قد تكون هى مراحل الوصول إلى الجنون ، أو إلى إدراك الوجوه الخفية ـ العادية ـ لحياة معاصرة نموذجية فى مدينة نموذجية . وهذه الرواية ، هى الأولى للمؤلف المصرى والكاتب القصصى ، والمترجم ، والناقد .

أما « مشكلة الكابوس » فهى إحدى قصصه الطويلة إخترناها للنشر مع « السحر الأسود » لأنها تنتمى لنفس التجربة الوجدانية الكامنة فى الرواية ، وإن كانت تمثل قراءة من نوع مختلف . ويكاد المؤلف هنا أن يخلق « الزمان » الأصلى الذى نشأت فيه تجربة الرواية كأنه استرجاع للماضى ولكن فى عمل مستقل .



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٠ قرشـا